مشاهير العرب

٤

عُمر بن الخطاب

أبو بكر ذكرى

دار المعارف

عُمرُ بن الخطابِ

مشاهير العرب

(٤)

عمر بن الخطاب

بقلم

أبو بكر ذكرى

الطبعة الخامسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١ ــ الزمان والمكان

لكى نعرف ، على التقريب ، زمان بطلنا هذا الذى خصصنا له هذه الصفحات ، يجب علينا أن نرجع أكثر من ألف وثلثمائة عام مع الماضى حيث كان يعيش ويملأ الدنيا نشاطاً ويسطّر على صفحات الوجود أروع آيات البطولة والعبقرية . . ويمكن تحديد ذلك الزمان بحقبة تقع على التقريب ما بين ٥٧٠ ــ ٦٤٠ من التاريخ الميلادى .

أما المكان فهو « مكة » أم القرى عاصمة بلاد « الحجاز » وأهم بلاد الجزيرة العربية خلال القرن السادس الميلادى كله . . ولما كان ذلك الزمان بعيداً إلى هذا الحد ، فلاشىء يعطينا صورة من الحياة فيها وفيما حولها إلا أن نرسل عين الخيال النافذ المصور ليقرب لنا ما بعد ويدنى إلينا ما نأى وتوارى فى غياهب الماضى .

نستطيع بعين الخيال أن نرى ذلك الوادى الرائع الهادئ الذى قامت عليه « مكة » وهو لا يزال دوأ أفيح[1] يبلغ طوله بضع عشرات من الأميال ، ويمتد ما بين الجنوب والشمال . وعرضه يقرب من طوله ، ويمتد من الشرق إلى الغرب . ونستطيع أن نرى حوله سواراً من سلاسل الجبال العالية الجرداء القمم ، تحف به من جميع جهاته ما عدا ثلاث نوافذ ضيقة هى منفرجات بين هذه الحلقات الجبلية التى تلفه

---

(١) الدو : المكان المقفر . والأفيح : الواسع .

وتحتضنه . وتقع إحدى هذه النوافذ على باب الطريق إلى اليمن ، فى الجنوب ، والأخرى على باب الطريق إلى الشام فى الشمال . وبينهما إلى ناحية الغرب نافذة على باب الطريق الذاهب إلى « جُدّة » على ساحل البحر الأحمر . ولولا هذه المنافذ ما عرفت الحياة طريقاً إلى ذلك الوادى .

ونستطيع بعين الخيال أن نطوى آلاف السنين طيًّا سريعاً لنرى أبا الأنبياء « إبراهيم » عليه السلام وقد أقبل من ناحية « أورشليم »[1] المباركة مهد الأنبياء ، فى قافلة تحمله وتحمل زوجته « هاجر » الشابة الغضة الحسناء ، وطفلهما الغض « إسماعيل » أحد غصون الدوحة النبوية التى بقيت أصولها بأرض « أورشليم » ، وجاء أحد فروعها فى إهاب الطفولة ، مع تلك القافلة ليغرس فى أرض « مكة » المباركة .

ترى ما الذى أوحى إلى « أبى الأنبياء » بأن يختار ذلك الوادى الجديب موطناً لزوجته الحبيبة وفلذة كبده « إسماعيل » ؟.. لعل وحياً سماويًّا أسر إليه باختيار هذه البقعة لأسرار لا يعلمها إلا الله . . أو لعله ، بعد أن ترك أرض الشرك وديار قومه المشركين بأطراف « العراق » مما يلى الشام ، وطوف فى الأرض واستقر فى أرض « أورشليم » ، قد نمى إليه أن ذلك الوادى الجديب الحصين ، وسط جزيرة العرب ، لابد أن يكون له مستقبل زاهر ومجد عريض يربطه بأمجاد السماء الخالدة . . وإذا كانت أرض « أورشليم » قد ضاقت على زوجتيه السيدة « سارة » ابنة عمه ، وزوجته « هاجر »

---

(١) اسم بيت المقدس وهى عاصمة « فلسطين » .

بسبب الغيرة ، فلم لا يقصد بهاجر وابنه « إسماعيل » إلى ذلك الوادى الحصين الوادع ليودعه فرعاً منه وقطعة من نفسه ؟ . . لعل أحاديث الرائحين والغادين من كل فج ، فى ذلك الزمان ، كانت تحمل إلى « أبى الأنبياء » أن جميع القبائل التى تحف بذلك الوادى وقوافل التجارة من أبعد الأقطار قد اختارت منه واحة بكراً[1] تتلاقى عندها الرحال وتحط فوق ثراها الأحمال طلباً للراحة والتزود من مائها القليل . كما اتخذت من واديها الساحر الهادئ الذى لا يعكر صفوة معكر مكاناً للعبادة والتأمل .

وعلى أى حال فقد كان هذا الوادى الجديب هو البقعة التى اختارها وطناً لولده « إسماعيل » وأمه ، فأنزلهما به وليس فيه إلا سكان قليلون من « جُرْهم »[2] وبقايا « العماليق » تتباعد منازلهم ، وتتناءى ديارهم ، من المضارب والخيام والعرائش التى تجدل حوائطها من أعواد النبات اللدن ،[3] وتحشى خلالها الحشائش فتقى ساكنها عوارض الجو المتقلبة ، وتحجب أنظار كل ذى فضول وتطلُّع أن تلج إلى داخلها . إنها بيوت تبنى بجهد قليل ودون أن تكلف شيئاً يذكر . وكان سكان الوادى وجيرته المتباعدو المنازل لا يحصلون على جرْعة الماء إلا بجهود مضنية حيث يجلبونها

---

(١) أى لم تسكن وتعمر .

(٢) جرهم : قبيلة قديمة أصلها من « اليمن » . والعماليق قوم من أحفاد نوح سكن بعضهم بلاد العرب .

(٣) اللدن : المرن اللين .

من آبار قليلة بعيدة . أو يبحثون عنها في التناهي [١] والحفائر البعيدة الغور . بعد نبش الحجارة والحصى منها . ثم لا يجدون إلا وَشَلاً [٢] سرعان ما تُنْضِبه دلاء قليلة العدد . وتظهر الأرض من تحته قاعاً صلباً لا يرشح بقطرة من الماء .

ونستطيع أن نقرب من خيالنا « هاجر » جارة الوادى الجديدة وقد أضناها وولدها العطش وراحت تبحث فى أركان المكان عن الماء بحثاً طويلاً متتابعاً كاد يهدها ويقتلها . لولا أن تداركتها رحمة ربها الرحيم فعثرت على بقعة ثرى بايل تكشفت لها عن عين « زمزم » المباركة فشربت وسقت ولدها . وعادت إلى عريشها تشكر ربها من أعماق نفس مؤمنة بعناية الله ورحمته .

ثم ازدادت « زمزم » جماماً [٣] وتدفقاً وبرقت جمامها لعين الطير فى كبد السماء فتهاوت نحوها من كل ناحية ، مرفرفة بأجنحتها . تترنم بألحانها المثيرة المطربة . ومن ثم تداعى إلى المكان عرب من « جُرْهم » وسواهم وبدأت المضارب والخيام والعرائش تظهر تباعاً . وبدأت القوافل المارة بالمكان تنشط وتتكاثر ، وإن كان ذلك فى بطء وتريث .

ثم كانت مشيئة الله بأن يبنى « إبراهيم » أبو الأنبياء . فى إحدى

---

(١) التناهي : الحفر فى الصخور يجمعها المطر .

(٢) الوشل : الماء القليل .

(٣) الجمام : المياه الصافية .

زوراته لأسرته الصغيرة . « بيت الله الحرام »[1] ليكون المعبد الأكبر فى هذه الأرض وقبلة الرائحين والغادين من كل فج عميق . . وكان فى كل زورة لأسرته لا يفتأ يمتع نفسه ويروى عاطفته الدينية بما فى ذلك المكان من سحر الطبيعة التى أحسن الخلاق فى صنعها بما لا يدركه الوصف أو يدانيه الخيال . وكم فى جمال الطبيعة من إلهامات سماوية وسبحات روحانية تصعد بالروح نحو السماء فى أبعاد تفوت المسافات ، وتتخطى كل حواجز العالم وسدوده ، منطلقة نحو اللانهاية والنور الذى لا حد له ولا قياس .

كان فى أوقات فراغه يطل من عريش أسرته القابع فى هدوئه المطلق فوق الرابية العالية قرب « البيت المقدس » فيروعه وينير روحه ذلك الضياء الربانى المتألق على ما حوله من الثرى المتباين الألوان وعلى الهضاب البعيدة اللامعة ، والكثبان[2] الرملية السابحة فى النور بخضرة أعشابها الزاهية الراعشة فى نسائم يستدير مهبها تباعاً لا يكاد يثبت فى ناحية . . وكم راعه وملأ نفسه سحراً وجمالا تبالج الفجر من وراء قمم الجبال الشرقية بأنوار تتعالى إلى السماء ضاربة فى الأفق . صاعدة فى القبة الزرقاء ، ملقية على رءوس القمم حللاً من البهاء جل أن يصنعها صانع سوى يد القدرة الإلهية التى لا حد لما لها من صنائع وعجائب . هناك كانت

---

(١) أى « الكعبة » المطهرة .

(٢) الكثبان : مرتفعات الرمال والأتربة .

روحه تسبح فى صلواتها وابتهالاتها ودعواتها إلى الله أن يزيد ذلك الوادى العجيب بهاء ونوراً وأن يرزق أهله من الثمرات لعلهم يشكرون نعمه وأفضاله : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .. وكم راعه وأفعم نفسه جلالا وابتهالا تداعى الشمس للأفول[1] وراء سلسلة الجبال الغربية ، تاركة وراءها فى الأفق أبدع زينة من ألوان الطيف والشفق الأحمر ، تسقط على القمم الجبلية الرشيقة التى تشبه أبراجاً شيدت على مختلف الأفنان والأشكال . وكم ملأ نفسه جلالاً وجلالا أسراب الطيور منبثة فى بكور الإشراق تطلب رزقها ، وعودتها ساعة الغروب ، تطلب أعشاشها ومواكنها ، وهى ذرافات أو فرادى ، تصدح بأنغام الشوق إلى مهاجعها ومجاثمها[2] المملوءة بالسعادة والسلام . وكم أسعده ، وملأ نفسه غبطة وسلاماً ، ساعات من الوحدة كان يقضيها على السفوح وبين القمم ، سابحاً فى تأملاته وصلواته ، يرى الوحش من هنا وهناك تتسرب رائحة غادية لا تزعج أحداً ولا يزعجها أحد ، كأنما امتلأت نفسها ، هى الأخرى ، سلاماً وأمناً فلا تهيج ولا تهاج . وما كان أحب إليه من أن يمتع نظره، فى فحمة الليل الساجى ، بمصابيح السماء وكواكبها ، أو بمصابيح الأرض تنبعث ، متباعدة ، فى جنبات الوادى

---

(١) الأفول : الغروب .

(٢) مجاثم الطير : أعشاشه وأماكنه .

الفسيح من مواقد ونيران تتأجج ، فى مضارب وخيام لا يرى منها سوى هذه الأنوار الراعشة ، فى أمواج الظلام ، تنبئ بأن فى الوادى الجديب حياة تتشبث بالوجود وتقاوم الفناء .

ثم يدور الفلك دورانه المغذ[1] الممعن السريع فإذا « إبراهيم » وزوجته وابنه فى بطون التاريخ . وإذا قبائل ، وبطون[2] من قبائل ، وناس إثر ناس يجيئون ويتعاقبون ، بقانون الموت والحياة ، على هذا الوادى العجيب وهو على طبيعته الرائعة التى كان عليها من عهد « إبراهيم » وأسرته الصغيرة ، ما عدا مظهراً آخر من مظاهر التطور العمرانى كان يتشكل ويتركز فى جنباته وينتشر فى ساحاته . لقد كثر سكان الوادى وكثر رواده وجيرته ، وكثرت آبار المياه فى نواحيه . وأصبح « البيت المقدس » الذى بناه « إبراهيم » وجهة أنظار الآلاف المؤلفة ترد إليه من شتى البقاع لعبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد مالك الملك والملكوت الحى الذى لا يموت .

ثم يمعن الفلك فى دوراته ويسرع فى جريانه ، فإذا الجزيرة العربية أكثر عمراناً وسكاناً . وإذا الموجات البشرية تتدفق من مكان إلى مكان : من « اليمن » نحو « الشام » و« العراق » ونحو « يثرب » . ومن « الشام » نحو « اليمن » ونحو « مكة » و « يثرب » . ومن كل ركن إلى كل ركن

---

(١) المغذ فى سيره : المسرع . ومثله الممعن .

(٢) البطن : فرع من القبيلة .

وناحية . وإذا التجارة رائجة والزراعة نامية والصناعة متقدمة . وإذا الوادى الجديب الذى دعا له « أبو الأنبياء » بالخير والبركة يصبح ملتقى هذا النشاط ومركزه وبؤرته الطافحة بالنعم وما شاءت العين أن ترى من ثمرات وأرزاق .

ولم يكد القرن الخامس الميلادى ينتهى حتى كانت الحياة فى الوادى السعيد قد دخلت فى دور آخر أعظم وأرق : كان « قصىّ » من ولد « إسماعيل » بن « إبراهيم » قد جمع قومه من عشائر وبطون وأفخاذ وأصبحوا مجتمعاً كبيراً منظماً هو مجتمع « قريش ».. وكان « قصىّ » هذ أول من استحدث البناء بدل المضارب والخيام . فبنى لنفسه داراً قرب « الكعبة »[1] . وبنى داراً للندوة لتكون مؤتمراً لقريش يتشاورون فيه كلما جد من الحوادث ما يهم ويدعو إلى الرأى والمشورة . . وسرعان ما قلده فى البناء غيره من أرباب الثراء والمقدرة ، كل على قدر طوقه . ومن هذه الأبنية تألفت « مكة » أم القرى وأصبحت أعظم الحواضر فى تلك النواحى .

وكان أمر القيام على « الكعبة » قد أصبح من خاصة « قريش » ، واستولت على مقاليد الأمور . وسيطرت على مرافق الحياة . وأصبح الحج إلى البيت هو المسئولية الكبرى الملقاة على عاتق « قريش » . كما أصبح لهم بذلك جاه وشرف لا يطاول . فى طول البلاد العربية وعرضها . ولقد زاد من شرفهم وحسبهم تلك الكارثة الكبرى التى نزلت بجيش أصحاب الفيل

---

(١) بالقرب من جبل « أبى قبيس» وهو من سلسلة جبال الشرقية .

عند ما انحدر من « اليمن » إلى « مكة » لهدم « الكعبة » فدمره الله بالطير الأبابيل التي أقبلت في جموع حاشدة من ناحية البحر الأحمر فأسقطت عليه طيناً متحجراً فغشا فيه وباء سريع مزقه شر ممزق . لقد كانت تلك الحادثة أشبه بمعجزة سماوية سارت بذكرها الركبان وأطارت سمعة « قريش » إلى شتى البقاع .

أصبحت « قريش » سيدة الوادي بلا منازع . وأصبحت تجارتها ذات قوافل تملأ الطرق ما بين « الشام » شمالا و « اليمن » جنوباً والبحر الأحمر إلى ناحية الغرب . وقل أن يمر يوم دون أن تدخل « مكة »، من إحدى نوافذها الثلاث ، قافلة أو قوافل تحمل إليها الخير والرغد والنعم الوافرة أو تخرج منها محملة بأثمن الأحمال إلى شتى أطراف الجزيرة العربية وما جاورها من الأقطار .

وفي مجرى القرن السادس الميلادي تقدم المجتمع المكي تقدماً عجيباً ووضعت « قريش » لحياتها نظاماً يشبه ، إلى حد ما ، دساتير الأمم المتحضرة . فوزعت المسئوليات والواجبات في شبه التزامات رسمية تسند إلى بيوت « قريش » الكبرى ، كوظائف وراثية دائمة تكون فيها ولا تخرج منها . . وكان أشهر بيوتها إذ ذاك بيت « بني هاشم » و « بني أمية » و « بني مخزوم » . و « بني تيم » و « بني عدى » و « بني عبد الدار » و « بني سهم » و « بني جمح » وغيرهم ممن كثر عددهم وعدتهم وصاروا أصحاب جاه وقوة . . كان لبعض هذه البيوت وظيفة « السقاية » وهي تدبير الماء

لحجاج البيت فى موسم الحج وهو عمل وافر المشقة فى بلد قليل الماء مثل « مكة » . وكان لبعضها « الرفادة » وهى تدبير الطعام لوراد البيت أيام الحج، ولغيرهم ممن ينزلون على « قريش » ورّادًا ليس لهم زاد يكفيهم . وكان لبعضها « سدانة البيت » وهى القيام على « الكعبة » وما حولها من الحرم، لدوام العمران والنظافة فيهما ، وتنظيم الشعائر الدينية . وكان لبعضها « اللواء » وهى راية الحرب فيكون القائد ، لو حدثت حرب ، من بيت اللواء . وكان لبعضها « السفارة » وهى أشبه بوزارة الخارجية فى زمننا هذا . وكان شرفها فى بيت « بنى عدى » وهو البيت الذى أنجب بطلنا هذا « عمر بن الخطاب » الذى كان خير من يقوم بهذا المنصب لفصاحة لسانه وثبات جنانه وشدة عارضته ، عند الجدل ، وحبه الصراحة والحق أينما كان .

٣ ـ مولد البطل ونشأته

لم يكن بطلنا هذا من بيوتات « قريش » ذات الثراء العريض والمال الوفير والترف الناعم ، كما كان الشأن فى أخواله « بنى مخزوم » أصحاب الأموال الطائلة والتجارات الواسعة والبساتين الزاهرة التى تقوم ما بين « مكة » والطائف كجنات تجرى من تحتها الأنهار . وكانوا لذلك يلقبون بريحانة « قريش » . وكان منهم « الوليد بن المغيرة » ذو الجاه العريض والثراء الزاخر . ولا كان لبيته ثراء الثراة من « بنى تيم » كأبى بكر بن

« أبى قحافة »[١] وقريبه « عبد الله بن جدعان » الذى كان يعد من أصحاب الملايين فى ذلك العصر . ولا كان له ثراء بيت « العاص بن وائل السهمى » ، ولا ثراء الثراة من « بنى أمية » مثل « أبى سفيان بن حرب » و « عثمان بن عفان » صاحب الآلاف المؤلفة من الدنانير والإبل والغنم والتجارات الواسعة . أولئك الذين كانوا يأكلون لباب البر ملبوكاً[٢] بالشهد والسمن ، ويجرون مطارف الخز والديباج ، وتلبس نساؤهم أرق غلائل الحرير من أبدع ما أخرجت مصانع « اليمن » ومصانع « الشام » وما جلب إليهما من أدق صناعات الأمم المتحضرة ، وأثمن الحلى من لآلىء البحرين وكل ما غلا ثمنه من درار لامعة .

كان عيش بطلنا وعيش بيت أبيه كفافاً ، وإن كانت أمه من « بنى مخزوم » ملوك « قريش » ، لأن أباه لم يكن ذا حظ فى التجارة التى كانت سبب ثراء الكثير من قومه .

ولد « عمر » العظيم فى هذا البيت المتواضع كما يولد كل طفل من أمثاله فى ليلة ككل الليالى ، بلا جلبة ولا ضوضاء ولا فرح ولا احتفال أكثر من ذبالة تشتعل فى فحمة الليل الساجى ، على غير عادة البيوت الفقيرة ،[٣] حتى لقد عجب من ذلك الصبي اليافع[٤] « عمرو بن العاص »

---

(١) هو الذى عرف بعد إسلامه بأبى بكر الصديق .

(٢) معجوناً .

(٣) كانت سقفها من جريد النخل الجاف ، وكانوا يخشون الحرائق فيطفئون السرج عند النوم .

(٤) اليفاعة سن ما دون البلوغ .

وسأل عن سر هذا المصباح الساهر في بيت « الخطاب » فأخبر بأنه قد ولد له ولد . ولم يكن ذلك الولد سوى « عمر » بطل هذه القصة .

ولما فتح الوليد عينيه على أول بصيص من نور الدنيا بدأ يتلقى من العناية والاهتمام ما كان يلقاه كل مولود ذكر في تلك البيئة العربية . التى تعلق أعظم الآمال على كل مولود ذكر يولد فيها . . إنها بيئة التكاثر والتفاخر بالرجال وبكثرة العدد الذى لم يكن للإناث فيـــه شأن يذكر . إذ كلما زاد عدد الرجال واحداً زاد رصيد البيت والفرع الذى هو منه دعامة جديدة من دعائم العز والسؤدد . .

ولنستعن الآن بعين الخيال لنرى والده « الخطاب » ذلك الرجل الصلب القوى العود الشامخ الأنف يبتسم . رغم خشونته وقسوته . كلما رأى وليده الجديد وتفرس في ملامحه . وتكاد الفرحة تستخف ميزانه وحلمه ورزانته فيهتف أو يصفق طرباً أو يرقص تيهاً وفخراً . . ثم هو بعد ذلك كلما عاد من أعماله . تنحى من بيته ركناً هادئاً وراح يفكر طويلا فى الآمال العذبة المرجوة من وراء هذا الوليد : إنه بلا شك لن يكون ابن « كسرى » ولا « قيصر » ولا ابن الثراة من بيوتات « قريش » فيلبس الخز والديباج ويركب الخيل المطهمة . ويبنى الدور الفيحاء من الأحجار المهذبة[1] المشيدة ويعدل سقوفها من خشب الساج الثمين المجلوب من بلاد « الهند » ومن « الهند » إلى « اليمن » ومن « اليمن » إلى « مكة » حتى ليباع الحمل

---

(١) المهذبة هنا بمعنى منحوتة منحفة المستوية

منه يقبضه من الذهب الوهاج . . إنه لن يكون من الثراء بحيث تفرغ فى مخازنه قوافلُ كاملةٌ أحمالها الثمينة من بضائع « اليمن » و « الشام » . حقاً إن « قريشاً » أهله وعشيرته قد أتيح لهم ذلك كله . بل إن فقراء منهم متربين [١] قد أصبحوا أصحاب ملايين . لكنه الحظ الأعمى الذى يخبط خبط عشواء . . إن أخوال هذا الوليد من بنى « مخزوم » لم يكونوا فى يوم أشرف من أبيه « الخطاب » نسباً ولا أعظم منه حسباً . إن أعظم ميزة فيهم لا تعدو حلاوة فى الألسنة ومرونة تقطر شهداً وكياسة فى المعاملة أكسبتهم حب أصحاب المتاجر والأموال فى كل مكان . لكن ألا يعد ذلك قدرة على المداهنة والمصانعة والرياء ؟ إنهم فى الحقيقة قد مهروا فى ذلك مهارة لا يطولهم فيها أحد . لقد أصبحت القوافل تفرغ فى مخازنهم وبيوتهم خيرات الدنيا على سعتها ، وأصبحت بساتينهم تمتد من « مكة » إلى « الطائف » كجنات تجرى من تحتها الأنهار . سفر يوم كامل لا تخطئ العين زروعهم وجناتهم ذات الثمار من كل لون وطعم . . وهذا بيت « بنى تيم » أثرى فيه « أبو بكر بن أبى قحافة » [٢] وأصبح ماله يعد بالآلاف . وهذا قريبه « عبد الله بن جدعان » ، بعد تشرده وشروره وكثرة جرائمه ، أصبح صاحب آلاف مؤلفة ، وأصبح يملأ الجفان [٣] العظام من لباب

---

(١) المترب الشديد الفقر .
(٢) هو « أبو بكر الصديق » .
(٣) القصاع .

البر والشهد والسمن واللحوم والثريد الطيب ، ويطلق منادين فى دروب « مكة » يدعون إليها الأكَلة، بلا حساب ،غير منادين ينادون عليها من فوق داره الفيحاء . . ثم بيت « العاص بن وائل » الذى أصبح لا يحصى ماله ، وأصبح مجزر « مكة » كلها ملكاً له وخاصة لا يشركه فيه أحد ، مع عظم غلته الهائلة . ياله من غنى وجاه عريض ! . إن بيوت هؤلاء جميعاً لتعج بالخدم والحشم والعبيد كما لو كانوا ملوكاً أو أمراء من بيت الملك . . لكن لم التفكير المضنى فى كل ذلك الذى لا طائل وراءه ؟ لماذا نجول فى هذا التفكير الأسود، ونستمر فى نبش ما لا طاقة لنا على نبشه ؟ لقد أصبح فى بيتى « عمر » . ولعل « عمر » سيصبح يوماً كهؤلاء أو أرفع شأناً وأعلى مكاناً . إنها الدنيا . أحقر من أن تثير فى صدورنا هذه الهموم . حسبى .

وهنا تنجلى هموم « الخطاب » عن نفسه فيقوم كأنما نشط من عقال ، ويدلف إلى مهد وليده ويعطره قبلات حارة يثلج لها صدره وتنسيه الدنيا بما جمعت من مال ونشب . . وتقبل عليه زوجته حنتمة أم « عمر » باسمة منشرحة لتحدثه عن مزايا وليدها الجديد التى لم تشهد مثلها فى وليد قط . ويبتسم لها زوجها قائلا : لعلها كلمات كل أم فى الدنيا يا حنتمة .. وتقول هى له : سوف ترى مصداق ذلك إذا انفسح لنا الأجل .

ثم يدور الزمان دورات سريعة فإذا الوليد طفل دارج نشيط يدب فى طرقات « مكة » ودروبها على أحسن ما يكون طفل نشاطاً وخفة ومرحاً. يصارع الصبيان ويزاحمهم على أبواب النوادى والمحافل والمساهر لسماع

طرب لا يدرى منه أكثر من ضجيج محبب لنفسه وكفى . . ثم يشتد عوده فيُبْعد الخطا ضارباً فى أرجاء الوادى الفسيح ، منقباً عن كل معجب باحثاً عن كل مطرب ، غاشياً مع الغشاة بيوت بنى أبيه من « بنى عدى » أو بيوت أخواله « بنى مخزوم » ، حيث كان يذوق هناك من حنان خالاته ما يرفه عنه من خشونة عيش أبيه « الخطاب » .. لقد كانت خالاته بنات الثراء يغمرنه ، فوق بشاشة اللقيا وعذب التحايا ، [1] بطُرف من المطاعم والمشارب لا تتيسر لغير « بنى مخزوم » أصحاب الترف والتنعم بكل الطيبات . فإذا ما تهيأ للانصراف أتحفنه بقبضات من الزبيب الذى كان لا يجلب إلا من « اليمن » أو « الشام » ، مسيرة شهرين للقافلة ، حتى ليتكلف الحمل منه دنانير معدودة .. كذلك طالما وجدت خالاته فيه غلاماً حزوّراً [2] عبقرياً لا يفوته مكان من موارد الماء فى وادى « مكة » الفسيح دون أن يعرف حلوه من ملحه وعذبه من تافهه . لقد كان يتخير لهن أعذب الموارد وأوفقها بالمترفين فيرسلن من يجلبه إليهن مهما تكلف ذلك من ثمن .

وكان فوق هذا وذاك لا يفتأ يتجول فى الحرم ويغشى مجالس « قريش » ، حول « الكعبة » ، يشاهد عبّادهم ومتنسكيهم [3] يقبلون على ساحة الأصنام بعد أن شاعت عبادتها فى الوادى وغلبت على شريعة

---

(١) جمع تحية .

(٢) الحزور الغلام القوى النشيط المتوثب .

(٣) المتنسك المنقطع للعبادة .

التوحيد التى أقامها فيه « إبراهيم » عليه السلام ، فبقيت هناك أحقاباً ثم تنوسيت وطال عليها الزمان . . لقد كان يهوى مشاهدتهم حين يقبلون على ساحات الأصنام فرادى أو جماعات ، يطوفون بالكعبة . . ويتقدمون إلى الأصنام فيسجدون لها ويمدون أيديهم إلى السماء وهم وقوف أمامها فى انكسار وخشوع . كان هذا المنظر مهما تكرر يسره ككل شىء يسر به الطفل ، وإن لم يفهم أى معنى لهذه العبادة العجيبة ولا أية ثمرة لهذه التضرعات . لقد كان شيئاً يبدو له جديداً سارًّا كلما رآه . وعلى الخصوص فى أيام المواسم والأعياد العامة لهذه العبادات الجاهلية . كان يجد فيها معارض رائعة لموجات بشرية تتدفق نحو ساحة « البيت الحرام » ونحو ساحة الأصنام التى نصبت فوقه وحوله فى أوضاع شتى وصور مختلفة .. موجات بشرية من المجتمع المكى فى ثيابهم النظيفة ذات الهندام الحسن والذوق الجميل .. وموجات بشرية من البادية فى ثياب خشنة تربة من طول السفر ، ونعال خشنة شرسة معفرة مشققة . وبعضهم حفاة عراة لا يسترهم غير مآزر ما بين السرة والركبة قد تنفرج عنهم أحياناً دون قصد منهم ، ودون أن يكون فى ذلك أى عجب أو غرابة . أما السادة والأغنياء منهم فكانوا يغالون فى فخامة ثيابهم وزخرفها على رغم ما فى ملابس الحج من بساطة وخفة . . كل ذلك كان يشوقه ويمتعه ويملأ نفسه بشتى الصور والتفكير الساذج السطحى الذى لا يعدو تساؤلا نفسيًّا داخليًّا كان لا يجد له جواباً إلا التحول والانصراف عنه إلى مناظر أخرى.

وما أكثرها وأوفرها فى بؤرة تتلاقى فيها الموجات البشرية ، فى كل وضع ، وعلى كل تجاه ، كأنها قرية نمل كبيرة دائبة النشاط .

وكان يجد متعة لاحد لها عند ما يرافق بعض أهله إلى « سوق عكاظ » .[١] كان يشهد هناك سباق الخيل الجياد تطير بفرسانها أسرع من نسور تطلب فرائسها ، أو بزاة تسرع فى طلب صيد سريع . وكان يشهد حلبات الشعر والمفاخرة وإنشاد القصائد الحولية ، فى حلقات صخبة مكتظة بالناس من كل لون وشاكلة . . وإذا لم يكن فى سنه تلك يفهم شيئاً من فنون البلاغة ولا من ألاعيب الفصاحة والبيان . فكفاه ما كان يشاهده من مناظر ومظاهر وتقاليد ووجوه وثياب وأصوات وجلبة وضوضاء واحتفالات وتكريمات وتصدية[٢] بالأكف المتحمسة كلما انتهى شاعر من إنشاده أو انتهى إلى مقطع مطرب معجب ، ثم راح المستمعون يحكمون لهذا أو ذاك . وكان يشهد هناك حلقات الرقص من الجوارى الحسان على توقيع الموسيقى العذبة فيمتلى سروراً ونشوة من قمة رأسه إلى أخمص قدمه . . أما حلقات المصارعة فكانت من أحب الأشياء إلى نفسه ، وإن كان يُمِضّه أحياناً ويحزنه أن ينتصر أجنبى على مكى أو ينهزم قرشى أمام خصم من غير « قريش » . وكم تمنى لو كان له من سنه وقوته ما ينصر به

---

(١) كانت تقام بمكة فى طريق « الطائف » شهراً فى موسم الحج للبيع والشراء وجميع الأغراض الاجتماعية الأخرى .

(٢) التصدية : التصفيق .

مهزوماً وينصف به مغلوباً ويرد به حق ضعيف أمام قوى . . وكان « عمر » كلما رجع بثروته من هذه المشاهد راح يقصها على أهله فى حماس وتأثر ينمان عن نفس حية شاعرة لا يعلم إلا الله وحده حدود ما تحوى من عجائب وغرائب .

٣ ـ « عمر » فى البادية

ولنضرب الآن بعين الخيال مرة أخرى لنرى بطلنا هذا وقد اشتد عوده ، وأصبح فى نظر أبيه « الخطاب » قادراً على حياة البداوة وراء الإبل والشاء التى كان يقتنيها قطعاناً ويرسلها إلى سفوح الجبال وبطون الوديان حيث تتجمع الأمطار وتهبط من رءوس الجبال إلى سفوحها[١] التَّربة وأوديتها السهلة فتنبت الكلأ والمرعى وضروباً من النبت لا تحصى ألوانها وأنواعها وزهورها .

وشعر الصبى اليافع بالبون الشاسع بين حياة الحضارة فى بيوت « مكة » وبين حياة البداوة الخشنة الموحشة . . ولعل أول شىء جال فى نفسه ونال منها بأكثر من حرمانه من بيت الأسرة ، هو الحرمان من رفقاء صباه وأتراب طفولته . . يا لهم من رفقة أوفياء ما كادوا يسمعون خبر العزم على فراقه « مكة » حتى أقبلوا إليه زرافات ووحداناً على بيت أبيه ، هذا يسأل وهذا

(١) سفح الجبل ما قرب منه إلى الأرض . والتربة ما يوجد عليها تراب صالح لنيلة النبات عليه .

يبدى الأسف وذاك يمسح دموعاً تغلبه وتبدو فى عينه وشلاً[١] فيعاجله بالمحو ، قبل أن ينحدر ويكون صورة من الضعف تشعر بالهزيمة التى لا يحبها الطفل ولا يرضى بها إلا على رغمه . . وذاك يغرق فى سهوم وشرود وامتعاض أشبه بنوع من الاحتجاج لا قدرة على البوح به .

إن « عمر » الآن ليذكر لهم كل هذا الإخلاص، وكل ما أتحفوه به من اعترافات بمزاياه وأخلاقه وما كان يسديه إليهم من عواطف ومساعدات على قدر طاقته . إنه هو الآن يذكر أنه حقاً طالما عاملهم بالإنصاف والحب ؛ وطالما دافع عن ضعفائهم أمام المعتدين وأنصف مظلومهم ممن يظلمه . وطالما ساعدهم على حل مشاكلهم من كل نوع ، وأسعدهم وأقر عيونهم ، وفرج ضيق أنفسهم بكل ما فى طوقه ، إنه الآن بين القمم والشعاف[٢] وبين الأحراش والكثبان يحتبي[٣] أحياناً بذراعيه ويضطجع إلى صخرة صماء لا تعرف آلامه، ويغرق فى ذكريات هذه الأيام والليالى العذبة . . إنه يتخيل كم من ليلة عاد إلى بيت أبيه ممزق الثياب دامى الجلد من معارك خاضها ليؤدب بعض الصبية الوقحاء المغرورين ، إثر اعتدائهم على بعض الصبية من أصحابه أو ذوى قرابته

(١) الوشل : الماء القليل .

(٢) شعاف الجبال أعاليها . والأحراش مجامع النباتات والأشجار البرية القصيرة . والكثبان مرتفعات الرمال والأتربة .

(٣) الاحتباء فى الأصل الاسترخاء فى الجلسة استناداً إلى شيء يلف حول الظهر والركبتين كشملة أو إزار مثلا .

وكم من طعام له متواضع دعا إليه منهم بعض من كان يشعر أنهم بحاجة إليه ليشاطرهم تناوله بسرور ، دون أن يهتم ببعض ما فيه من نقص عن أطعمة المترفين ، لأن الحب والإخلاص ومرح الصبا يجعل كل ما فى الحياة حلواً بالغاً غاية الحسن والجمال . . ويذكر الآن كم من أمسية شجع فيها رفاقه بجرأته النادرة على تسلق سفوح الجبال حتى تصبح بيوت « مكة » تحت أنظارهم أشبه بأحجار وصخور حقيرة متناثرة هنا وهناك بلا شكل ولا نظام ، وحتى تتسنى لهم رؤية الهلال من وراء القمم الغربية وهم على سفوح الجبال الشرقية ينتظرون انحدار الشمس فى بحر من الشفق الزعفرانى البهيج الألوان . ولطالما جرأهم وكان أطولهم قامة ، على صغر سنه عن سن أكثرهم ، وأرشقهم عوداً وأشدهم أعصاباً ، على الوصول إلى أبواب الغيران التى كان يقصدها العباد والمتحنثون[1] للخلوة والعبادة . . وكم جرهم إلى مغارات السباع والوحش ليرصدوها بعد حين ، عند ما تخرج فى غبشة الغروب معتسة[2] تبحث عن أرزاقها ، بعد جوع يوم طويل ، فيناغونها ويصفقون لها ويصفرون فلا ترد عليهم بأكثر من لفتات مختلسة ثم تولى مسرعة وتختفى فى مثل لمح البصر . . كل ذلك كان يداعب خياله الغض المرن المتوثب . فى كل ساعة وحدة تتاح له ، وينال من نفسه ويجسم له أول واجب من أعباء الحياة أصبح حملا على عاتقه ،

(١) المتحنث الكثير العبادة .

(٢) المعتس الباحث عن شيء تحت ستار الظلام .

بعد حياة طفولة لا حدود لها ولا قيود .

وتمضى الأيام والليالى تباعاً ، آخذاً بعضها بركاب بعض ، كسلسلة متتابعة الحلقات ، فيألف بطلنا حياته الجديدة ويتعود ما فيها من جد وصرامة ونشاط . ويشعر بقوة دافقة تنصب فى عروقه وتسرى فى عصبه ولحمه ودمه ، ويصبح جل طعامه أو كله من اللحم واللبن والسمن وما خف من نبات البر فتسرع قامته فى الامتداد والرشاقة ، وتتوافر أعماله الشاقة القاسية فيصبح رياضياً بالطبيعة ، بعيد ما بين المنكبين يملأ منظره العين هيبة من أول نظرة تلقى عليه .. ويلمع ذكاؤه ويتألق ويبدو نشاطه وسرعته فى معالجة الأمور مع دقة وإصابة وإحكام ، فيسلم له مساعدوه الرعاة ويعترفون له بالزعامة والسيادة ويسيطر على أكثر رعاة الوديان بمزاياه التى كم أثارت فيهم إعجاباً لا حد له .

لقد أصبح خبيراً فى حياة الحيوان ، ملماً بطرق تربيتها ، عارفاً بآلامها وأمراضها وطرق علاجها وخير الوسائل لتنميتها من غذاء وشرب وحراسة وصيانة من عدوان الوحوش الضارية . . ومهر فى ركوب الخيل وضروب الفروسية حتى اشتهر عنه فى البادية والحاضرة أنه كان يمسك أذنه اليمنى بيده اليمنى ، ويمسك بيده اليسرى أذن فرسه ثم يثب وثبة واحدة فإذا هو معتدل الجلسة فوق ظهرها وكأنما فعل ذلك بقوة سحرية خارقة .

وهناك راح يروى غريزة حب الجمال فى نفسه بما فى البادية من ضروب الجمال الطبيعى الذى لا حد لأفنانه ولا عدد : هذه نجوم الليل

فى القبة الزرقاء الصافية كأنهـا كرات صغيرة من اللآلىء رصعت بها قبة من اللازورد [١] لا حد لعظمها ولا قياس . وهذه ظلال السماء تنعكس ليلا على صفحات الغدران [٢] الصافية القريبة من السفوح كأنما يحلو لها أن ترى صورتها البديعة على تلك المرايا العجيبة لتباهى بها القمم الشماء التى تزاحمها بصورها الرائعة على صفحات الماء الذى لا نهاية لصفائه ولا حد . . لقد طالما رأى « عمر » العبقرى المخبوء فى ضمير الزمان ، هو أيضاً ، صورته الرائعة وشبابه الغض فى هذه الغدران الصافية وهو يملأ منها جرته ثم يحملها بيد واحدة كأنما يتباهى بقوة شبابه ، وإن كان ذلك لم يخطر له على بال . ولطالما متع نفسه بخضرة الكثبان المخضوضرة المنمقة الوشى بيد الطبيعة الصناع [٣] التى تمدها القدرة الإلهية بفنون تعجز عنها كل قوة غير قوتها الخارقة . . ثم نسائم العشى البليلة من قبل « نجد » تلك التى كانوا يسمونها الصَّبا وينظمون فيها أرق الأشعار وأبدعها ، ويرون فيها محرك الوجد والصبابة والحب ، ومهزة عواطف الشباب الناضر المتوثب . وحتى عواصف الليل تسوط [٤] القمم الشماء صارخة مزمجرة راعدة مبرقة تسوق السحب المحملة بالأمطار فتنشر الخصب والحياة ، وتهز الآمال فى صدور اليائسين ، كم كان لها فى نفسه من جمال وأحاسيس لا يدركها

(١) اللازورد نوع من الأحجار الثمينة أزرق اللون .

(٢) الغدران مجتمعات الماء الراكد التى نسميها احياناً (البرك) .

(٣) الماهرة فى الصنعة .

(٤) تضربها بالريح مثل الضرب بالسوط .

الوصف . أما صغار الحيوان بل وكل أفراد قطيعه فكانت أحب إليه من كل شيء فى الدنيا . وكانت فرسه الكريمة تكاد تعدل عنده روحه التى بين جنبيه أو تزيد . . كانت قد أنست به ، وأنس بها ، فلا تطيق له فراقاً ولا ترفع عينها عن شخصه طرفة عين . . فإذا ما جاء الليل وجاءت نوبة هجوعه ، تاركاً القطيع فى ذمة غيره من الرعاة ، تخيرت فرسه مكانها بالقرب منه ، وهجعت مطمئنة إلى وجوده . . وهل عجب منها كل هذا الحب وهو الذى يسقيها أقداح اللبن العذب ، حليب وقته ، إذا شعر بأن نوبة سقيها قد تأخرت عن موعدها ، وراح العطش يضايقها ويضنيها ؟ لقد كانت أسرع انتباهاً وانتصاباً من النمر كلما شعرت بما تحسبه خطراً على سيدها الذى يدللها بكل أنواع التدليل والتعزيز ، وكانت حمحمتها تسبق نهوضها فينبه ذلك سيدها الذى لا ينام إلا ويده ممسكة بمقبض سيفه ، ليكون قريباً منه عند خطر مفاجيء . وطالما رأى إثر هبوبه من سنته وحشاً جاثماً ، على مرمى الحصاة منه ، كأنما يتحين فرصة للوثوب ، فإذا شام[1] سلة الحسام وبرقت حديدته اختفى بأسرع من ومضة البرق . وكم من ليال منحته فرسه الحبيبة صهوتها فطاربها كالسهم ، لينجد أحد الرعاة ، إثر صرخة من صرخاته ، فينقذه من غارة فتاك نزلوا به ليسلبوه ماله أو روحه . . أما مجالس السمر حول الشواء ، أو للمنادمة على الكؤوس المترعة ، فكانت من أحب المتع إلى نفسه الشاعرة . ولقد طالما اهتز لسماع

---

(١) شام الشيء أبصره .

القريض ، وطرب لموسيقاه العذبة . ورطب لسانه بصوغه ونظمه ، ووعى منه زاداً لاينفد على الحياة . وكم تخير من عيون الشعر ما يدل على ذوق لا حد لرقته وصفائه ، فراح يتغنى به ويستنشده غيره ليطرب بنغماته الحلوة .

لقد أصبحت البادية قطعة من نفسه ، وسرى حبها مسرى دمه فى عروقه فأصبح لا يريد بها بديلاً ، على كثرة ما كان يرهقه أبوه به من تكاليف وأعمال تعجز فطاحل الرجال . إن أباه « الخطاب » كان غليظاً قاسياً لا يفتأ يخلق له المشاكل والمتاعب لأنه كان يريد ثراء سريعاً من وراء قطعانه لا يخلو من مبالغة فى الطمع . . وكان الفتى العبقرى على ذلك صبوراً ولوالده مطيعاً ولرغباته منفذاً ما وجد إلى ذلك سبيلا . وكان يعجبه من أبيه أحياناً ، بريق من الحنان الأبوى ، رغم غلظته وقسوته . إذ كان يسمح له فى بعض الأوقات بالانحدار إلى « مكة » عش أسرته الحبيب ومسقط رأسه ، وعلى الخصوص فى أيام المواسم والأعياد فيستعيد بذلك ذكريات الصبا ، وينعم برفقائه بعد أن ودعوا الصبا كما ودعه ، وراحوا يعملون فى مختلف الأعمال كل فيما يسّر له . . لقد كانوا يلتفون حول « عمر » كلما جاء من البادية ، كأنهم نجوم فى موكب القمر ، فيطوفون معاً بكل مكان يجدون فيه متعة شبابهم الناضر . . وطالما لجأوا إليه يشكون من تغلب المصارعين الذين يأتون من البادية إلى سوق « عكاظ » فينزلون بشبان « مكة » فى المصارعة هزائم موجعة . . وكان «عمر» لا يخيب رجاءهم

فيه ، فكان يذهب إلى الحلقة وهو البصير بمصارعات البادية فما إن يتقدم إليه منهم مقدَّم فيهم إلا وينازله بمثل مهارته وأعظم حتى يتعبه ثم يطويه طي قربة موشكة على النضوب ، ثم يلقيه إلى الأرض مصافحاً بوجهه الرغام[1] ، بين تصفيق أصحابه وأحبابه الذين يرجعون به ، محمولا على أكتافهم ويطوفون به أحياء « مكة » ودروبها كما لو كان بطلا عاد من معركة فاصلة بعد سحق عدوه اللدود .

٤ ـ عمر فى التجارة وحياة المجتمع

وهنا نرى الزمان قد دار دورات كافية لأن تتبدل الحياة ، وقلما وجدت حياة لا تتغير . ولعل رفقاء « عمر » الذين احترفوا التجارة ، وهو لا يزال فى البادية ، كانوا أهم عامل فى صرفه عن حياة البادية الحبيبة إلى نفسه . لعلهم شوّقوه إلى آفاق أخرى أرحب وأوسع ، إذ يقصون على مسامعه أخبار « الشام » وطرقها وأسواقها وبساتينها وجنّاتها وما فيها من ثراء موفور ونعم زاخرة ومناظر ساحرة . ولعلهم استنشدوه شعر « عمرو بن كلثوم » التغلبي حتى أجروا لسانه بقوله فى الخمر :

وكأساً قد شربت ببعلبك[2] وأخرى فى دمشق وقاصرينـا

---

(١) الرغام : التراب .

(٢) بعلبك ، ودمشق ، وقاصرين ثلاث من مدن الشام .

مشعشعة[1] كأنه الحُصَّ فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا
صددت الكأس عنا « أم عمرو » ... وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة « أم عمرو » ... بصاحبك الذى لا تصبحينا[2]

ولعل « عمر » قد اهتز لذلك وطرب لأنه كان يتعشق الخمر الجيدة المعتقة فى أديرة « الشام » وقلما كانت تفوته فرصة لمشاطرة رفقائه من الشبان فى مجالسها فى حانات « مكة » الشهيرة . ولعله رأى البون بعيداً بين شربها فى دمشق وقاصرين وهى باردة كالثلج لا يخفف بردها إلا مزجها بماء سخين ، ومجلسها فى غوطة[3] تتحدث الناس بجمالها فى الأقطار وبين شربها فاترة فى حانات « مكة » المتواضعة . لقد كان شاعراً عشاقاً لكل جمال ميالا إلى كل لون جديد وإلى كل أفق أرحب وأوسع وأعلى .

وعلى أى حال فقد تشوق « عمر » إلى حياة التجارة : حرفة أهله ومهنة قومه . وراح يجوب الأقطار ، مثلهم ، ويربح لحياة أهله وبيته ما فيه خيرهم وسعادتهم ، كما كان يفعل تجار « مكة » . ورب ليلة عاد فيها إلى أسرته لينفض من أحمال جماله نعماً من طيبات « الشام » ومطاعمه وثماره التى لم تكن تتاح لأهل « مكة » إلا مجلوبة بالقوافل ، مسيرة شهرين

---

(١) المشعشعة الرقيقة الصافية . والحص الزعفران : أى كأنها لصفرتها قد مزجت بزعفران .

(٢) يقال : صبحه إذا سقاه الخمر فى الصباح .

(٣) الغوطة مجموعة من البساتين فى « دمشق » لا نظير لجمالها فى الدنيا .

وطالما رآها « عمر » أيام صباه فى بيوت « قريش » واشتهاها دون أن يطمع فى الحصول عليها . لقد أصبحت أسرته هو أيضاً تلبس ملونات « الشام » الجميلة ونسيج « اليمن » الدقيق الرائع ، بعد عيش كان كله أو جله[١] صورة من البداوة الخشنة ، وراح بذلك سعيداً وفى عمله موفقاً .

وفى مجرى حياته الاجتماعية الجديدة كان يتقدم بخطى سريعة فى سلم المجتمع ، ويصعد درجاً بعد درج ، ويتخطى قمة إلى قمة ، حتى آمنت « قريش » كلها بذرب لسانه وثبات جنانه ونظام منطقه وجده وصرامته فى الحق . . لقد ودع لهو الصبا وانطلاقه ومرحه وأحلامه التى يجب أن يتركها لغيره من الناشئين ، أصبح أهم شىء لديه أمر « قريش » والتفكير الدائم فى كل ما يعود على المجتمع المكى بالخير والسعادة والسلام . . وولته « قريش » منصب السفارة وأسندت إليه السعى فى حل مشاكلها الداخلية والخارجية فكان اليعسوب[٢] الذى لا يفتر ولا يهدأ ولا ينام عن طلب خير حتى يحققه .

كان مثالياً[٣] يعجب بكل قرشى أو مكى يشتهر بالتعقل والرزانة والحكمة وحسن التدبير لحل المشاكل والخلافات . وكان يبغض ، كل البغض ، كل من يركب رأسه فى الأمور ويتسرع فيما يجر البغضاء والشحناء والفرقة وقطيعة الأرحام . ولكم كان يبدى حنقه وغيظه كلما جرى لسان

---

(١) جل الشىء أكثره .

(٢) اليعسوب : ذكر النحل .

(٣) المثالى هو الذى لا يحب إلا معالى الأمور .

بذكرى حرب « الفجار » التى انتهكت فيها حرمة الأشهر الحرم ، وبلغ من فجور من أشعلوا نارها أن حدث القتال داخل حدود الحرم المقدس .. لقد كان فى أيامها لا يزال ابن سنواته الأربع ، ومع ذلك فإن ذكراها لا تزال تُمِضُّه وتشجيه فيلعن بلسانه وقلبه كل من كان له فيها عاة أو سبب . لقد كانوا مجانين أولئك الذين دنسوا الحرم بخطاياهم وذنوبهم .

وكان يتأسى فى أخلاقه وساوكه برجلين عظيمين من رجال « قريش» أولهما فى نظره ذلك الشاب السمح المثالى « محمد » بن « عبد الله » بن « عبد المطلب » الذى كان المثل الأعلى للأدب والحلم والتسامح والعمل على السلام . . إنه لن ينسى لهذا الرجل الحكيم موقفه يوم اختلفت « قريش » وهى تبنى « الكعبة » : أى بيوتها ؟ يقوم بوضع الحجر فى موضعه ويحوز بذلك الشرف على كل بيوتها . وكانت السيوف على وشك أن تسل لحرب مدمرة ، فاقترح ذلك الشاب الكريم أن يضعوا الحجر فى رداء ثم يأخذ كل بطن من بطون « قريش » بطرف منه فيرفعوا الحجر إلى مكانه ويكون شرف رفعه للجميع . يا لها من مكرمة كانت نعمة من الله ومأثرة لا تنسى . أما الرجل الآخر فهو « أبو بكر بن أبى قحافة » ذلك الرجل الذى أثرى من أشرف الوجوه ، ولم يضن يوماً على قومه بخير ، ولم يسع إلا فى خيرهم وسلامهم وسعادتهم . إنه عالم « قريش » وحافظ أنسابها ومكارمها وتاريخها الأشم ، ليت « عمر » يصل يوماً إلى أن يكون له مثل ما لواحد من هذين الرجلين . إنه سيكون شرفاً عظيماً .

وكان يحب كل من يضيف إلى مفاخر « قريش » فخراً وإلى ثرائها ثراء وإلى قوتها قوة . ولكم أعجب برجال « بنى مخزوم » أصحاب الأيادى البيضاء فى بناء « الكعبة » بما أنفقوه من أموال طائلة على إقامتها وعمارتها وصيانتها . وكم أعجب برجال « بنى هاشم » أصحاب التاريخ المشرق الصفحات والأيادى البيضاء على « قريش » كلها . . وفى اشتغاله بهذه وتلك من المسائل لم يكن « عمر » يغفل تجارته والسعى لخير أسرته الخاصة . لقد كان مثله الأعلى فى ذلك الزمان أن يحقق تلك المفاخر التى وصف بها « لبيد بن ربيعة » قومه فى معلقته المشهورة إذ يقول :

من معشر سنّت لهم آباؤهم ... ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبَعون (١) ولا تبور فعالهم ... إذ لا تميل مع الهوى أحلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفظِعت (٢) ... وهمُ فوارسها وهمْ حكامها
وهمُ ربيع للمجاور فيهمُ ... والمرملات (٣) إذا تطاول عامها

٥ ــ ظهور الإسلام وموقف « عمر » منه

بينما كان المجتمع المكى يتابع حياته الرتيبة فى جوار « البيت المقدس » بعيداً عن حروب الجاهلية وعدوانها وشحنائها ، فرحين بنجاتهم من

(١) لا يلحقهم الطبع بفتح الباء وهو الدنس . والأحلام هنا العقول .
(٢) أصابها أمر فظيع .
(٣) من فقدن أزواجهن .

جيش الفيل ، منذ أربعين عاماً، ثم بانتهاء حرب الفجار إلى السلام والصلح ، منذ عشرين عاماً ، ثم « بتمام الكعبة » وعمارتها ، بعد السيل الذى هدمها ، منذ خمس سنوات ، وبينما هم فخورون بالكعبة التى هى متعلق آمالهم ومعقد رجائهم ولواء فخرهم وشرفهم ، وبينما راحت كل بطن من « قريش » يفخرون بما أسهموا به فى عمارتها ، وبينما راح « بنى مخزوم » يفخرون بأنه لولا جرأة « الوليد بن المغيرة » ما اجترأت « قريش » على هدمها ، ولا تأتى تجديدها اذخاف كل إنسان منهم على نفسه أن يمسها بفأس أو معول فتنزل به كارثة ، فتقدم « الوليد » وضرب فيها أول ضربة ، وبات الجميع يقولون : إن بات « الوليد » وأصبح بخير هدمنا وإن مسه سوء أمسكنا ، فأصبح غادياً بفأسه يهدم ، فهدم الناس ، وبينما « قريش » فى فرحهم ومرحهم ومجرى حياتهم السعيد إذا بهزة جديدة غير منتظرة تهز مجتمعهم هزًّا رفيقاً أول الأمر ثم تزاد الهزة حتى تزلزله فى أعماقه وتملأه بما لا عهد له به من قبل .

لقد بدأت الأخبار تسرى بأن « محمد بن عبد الله » قد جاء بدعوى عجيبة غريبة ما كان يخطر على بال أن تجىء من مثله . . حقًّا لقد استفاضت الأخبار منذ عهد غير بعيد بأنه قد غير من سلوكه المعتاد وأصبح يقصد إلى « غار حراء » ومعه زاده ، ليتحنث هناك الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى عش زوجته « خديجة بنت خويلد » ، ثم يعود إلى الغار ثم إلى بيت زوجته ، دون أن يكون فى ذلك عجب أو منكر . . إن « مكة »

منذ أن أسس عالمها « إبراهيم » أبو الأنبياء وبنى فى واديها « الكعبة » ، حتى هذه الساعة ، لم تخل من متحنث فى غيرانها ، أو متعبد عند بيتها المقدس ، دون أن يهيج أحداً أو يهيجه أحد . ولكن واحداً منهم لم يدّع مثل هذه الدعوى العجيبة التى جاء بها « محمد » .

وعند ما بدأت الألسن تلوك فى المجتمع المكى نبأ هذا الدين الجديد بدأ تيار من القلق والاندهاش ينساب فى شعاب « مكة » ويغزو دورها ونواديها ومجالسها ، كما تبدأ نذر سيل عرم بسريان مسايل دقيقة من الماء فى واد آهل بسكانه لتنذر أهله بخطر داهم ويوم عصيب . ولم يكن القوم فى فورة الصدمة الأولى يشعرون بأكثر من عجب حدث ونبأ جديد وقع . فلا جديد منهم أكثر من التساؤل ، ولا عمل سوى ترديد كلام وخوض فى حديث معاد يسمع فى أفواه الشبان ، كما يسمع من أفواه الأحداث ويردده الرجال ، كما تعيده الصبايا والنواصف[1] والعجائز فجر كل يوم ومطلع شمسه ومشرق ضحاه وعند ظهيرته ووقت أصيله وعند غروب شمسه ، وفى فحمة ليله الساجى بصمته العميق .

وأكثر ما كان يقذف به أخف القوم أحلاماً ، من السب والشتم ، هو تلك السخرية التى لا تعتبر عجباً من قوم جاهليين مغيظين من أجل دينهم وتقاليدهم . كانوا يقولون فى سخرية واستهزاء : دين ابن «أبى كبشة»[2]

(١) النواصف والنصف متوسطات العمر .

(٢) كان رجلا فقيراً من أهل البادية ، وكان زوج حليمة مرضعة النبى (ص) .

ثم يتضاحكون من الدين الجديد ومن ابن « أبي كبشة » الذى جاء به مما حدثه شيطانه وقرينه بهذا الهذيان .

ولم يكن بطل هذه الصفحات « عمر » بدعاً من قومه ولا نمطاً آخر غير نمطهم . . كان يخوض فيما يخوضون ، ويتحدث فيما يتحدثون . بل ربما كان ، بطبيعته الحساسة وإخلاصه العميق لأمجاد قومه : من أشدهم انزعاجاً وأوفرهم همًّا وأطولهم فكرة وسهوماً لهذه الأنباء المزعجة . بل رب ليلة بات فيها يرقب نجم الليل أيان يغرب ، وقد جافاه النوم وراح يحدث نفسه بما كان وما سيكون من أحداث . إن سنّه الآن لا تعدو ثمانية وعشرين عاماً هى سن الفتنة بالجمال والشباب وسن النشوة بأمجاد القومية ومفاخر العشيرة . سن الإدلال بالقوة والفتوة والتسرع إلى الظهور بمظهر القدرة على الانتقام من كل من تحدثه نفسه بأن يمس تقاليد « قريش » أو يبدل من أوضاع حياتها ومقدساتها المصونة . . لكن ممن ينتقم ؟ وكيف ينتقم ؟ ومتى ينتقم ؟ لو أن ذلك الذى أحدث هذا الحدث ، فى ثنايا القرية المقدسة وفى خلال « قريش » ذات المجد والجاه العريض ، كان غريباً عنها وخارجاً عن صريح نسبها ، وفرعاً من غير دوحتها لقصد إليه أينما كان من الأرض فأخذ بعقبه وقفاه وعصره عصرة تدخل أعلاه فى أسفله . أو لجره بعقبه ثم صعد به إلى قمة جبل فألقى به فى مكان سحيق . أو شطره بسيفه شطرين لا يمس أحدهما الآخر . أو لأوقد له ناراً يشويه عليها كما كان يشوى ذبائحه وصيده مع الرعاة خلف قطيع والده « الخطاب » .

لكن يا للمصاب ويا للشقاء ويا للفتنة ! إن الذى فعل هذا بقريش ليس إلا أحد أبنائها ومن ضئضئ[1] الشرف منها . . إنه من « بنى هاشم » أصحاب الشرف الأشم من دوحتها وبناة الركن المنيف من ساحتها . . يا عجباً لهذا الخارج على قومه العاق لأمجاد أهله . أو قد نسى أن جده ، « هاشما » قد جاء يوماً بجل ماله فجلب به طعاماً من « الشام » لينقذ « مكة » من مجاعة مهلكة ، ثم راح يشبع أهلها ثريداً من لباب البر وأمراق الأسنمة ولحماً تتدفق به الجفان[2] حتى ذهب عنها الجوع ؟ بل أبى كرمه الحاتمى إلا أن يطعم وحشها وطيرها ، بإلقاء الطعام على رءوس الجبال . أهذه أمجاد تنسى ؟ وإذا كان قد نسى أمجاد جده « هاشم » على عظمها ، فكيف ينسى تاريخه هو نفسه ؟ ألم تكن « قريش » كلها على وشك التفانى بالحرب أيام بناء « الكعبة » فكان هو المحكّم الذى ارتضى الجميع حكمه ، وحل الوفاق محل الخلاف وزال الخطر وحل الأمن والسلام ؟ وايم الله لولا أن لهذا الرجل مكانته من نفسى بسبب ماضيه الأغر وخلائقه التى سارت بمحاسنها الركبان ، فى كل واد ، لأقمت له رصداً على كل طريق يسلكه ثم تركته بسيفى كجزور يتشحط[3] فى دمه ... إنى والله لأعلم ، أكثر من « مكة » كلها ، كيف هو ؟ وأين هو ؟ وعلام يصبح ؟ وعلام

---

(١) للضئضىء الأصل .
(٢) الجفان القصاع الكبيرة .
(٣) يهتز ويضطرب .

بعمى ؟ لكن أى خير يرجى لقريش وبطحائها[١] إذا أنا أقدمت على أمر كهذا ؟ أتسعد « قريش » بعد ذلك ساعة من ليل أو نهار ؟ أيعمر مجلس بعد ذلك بالسمر الحلو أو يغص ناد بأهله على زفن[٢] الجوارى وغناء القيان وارتشاف الكؤوس المترعة ؟ يا للخطب ، يومئذ ، على « قريش » كلها بين غالب ومغلوب وقاتل ومقتول . . أ أمضى يوماً لأحسم الداءالذى بدأ هذا الرجل ينشر عدواه قبل أن يستفحل ويقضى على السلام ، فى هذا الوادى السعيد ، القضاء المبرم ؟ لا . . إن هذا الذى أتسرع به الآن ما يزال ظناً مرجماً[٣] وحديث ليل لم ينجل فجره . أما ماسأفعله ، لو فعلت الآن ، فهو البلاء المعجل والخطب الحالق . . إن من الحزم إذن أن أتريث لأرى ما وراء هذا الليل البهيم والخطب العظيم وأن أنتظر لأرى رأى المشيخة من « قريش » ذات الأحلام الراجحة والآراء الناصعة الواضحة .

وراح الفتى العبقرى ينتظر ما يأتى به القدر ، وينهنه[٤] نفسه عن التسرع ، آخذاً على زمام غرائزه ونوازع نفسه بيد من حديد ، مكتفياً بتتبع أخبار هذا الدين الجديد وأخبار الصابئين[٥] الذين يتركون دينهم

---

(١) البطحاء مكان من « مكة » يسكنه أشراف « قريش » .
(٢) الزفن الرقص . والقيان المغنيات .
(٣) رجم بالغيب .
(٤) ينهى ويمنع .
(٥) الصابىء من يبدل دينه بدين غيره .

ليدخلوا حظيرته . إن من السهل عليه إشباع غريزة الانتقام فى نفسه بإيذائهم والتنكيل بكل من يقع فى يده منهم ، عسى أن يكون فى ذلك ما يردع سواهم عن الصبوء . إنهم يخشونه أشد خشية ويذوبون كلما رأوا خياله واو على بعد . إنهم ضعفاء لا ضير على « قريش » من أن يصبأوا أو يبقوا على إخلاصهم لدينهم الموروث . إنه هو أحياناً يتذكر أنه منذ كمل عقله لم يقتنع يوماً بمعنى هذه العبادة وتأليه الأصنام . ولقد سبق أن عباداً متحنثين بمكة عبدوا الله على طريقتهم التى تحلوا لهم ، دون أن يعترفوا بالأصنام وكان منهم « زيد بن عمرو بن نفيل » وهو ابن عم « عمر » نفسه . إن « عمر » نفسه يذكر أنه لم يكن يحفل بهذه الأصنام بقدر ما كان يحفل بإبل أبيه « الخطاب » وشائه الراعية فى السفوح والوديان . . لم يسهر لها ليلة كما سهر للقطيع مئات الليالى ، مهموماً بأمرها ، يعد نجوم السماء تنظُّراً [١] للفجر ليأمن على قطيعه عدوان الوحش . إنه لم يغش باحة[٢] هذه الأصنام إلا مسوقاً بمحض التقليد وبحب الاستطلاع عند ما كان فى طراوة الصبا ، وبقايا سذاجة الطفولة . أما عند ما بدأ يدخل فى دور الشباب الناضج ويستكمل قوة العقل ، فكم كان يسأل نفسه ما هذه الأصنام المنحوتة المصنوعة ؟ وما الذى يمكن أن تقدمه لعبادها من نفع أو تأخذهم به من ضر؟ إنه لا يمقت « محمداً » وأصحابه ،

---

(١) التنظر : الانتظار .

(٢) الباحة : الساحة .

إذن ، لمجرد الصبوء . ولا حبًّا فى الأصنام ولا حفاظاً[١] على دينها وسلطانها . إن أخشى ما كان يخشاه من وراء صبوئهم هو إحداث الفرقة والتقاسم والعداوة بين بطون « قريش » وبيوتها . . فلينتظر ، إذن ، ما سيسفر عنه الفجر إن كان لهذه الفتنة من فجر .

وراح الفتى العبقرى يقسّم جهد فكره وطاقة أعصابه بين شئون بيته ومطالب حياته ، وبين همومه المتكاثرة لهذا الحدث الطارئ ، وينفس عن نفسه من ثورتها ، بتعقب أخبار الصابئين وتعذيب من يقع منهم فى يده العذاب الذى يردع كل من تحدثه نفسه بالصبوء .

ولكن أمراً آخر بدأ يداعب فكرته ويزحم أنفاسه فى صدره : إنه يجد كل من صبأ ودخل الدين الجديد لا يعود أبد الدهر إلى دينه مرة أخرى ، بل يظل ثابتاً على دينه الجديد لا يتحول ، رغم هذا العذاب الذى ينزل بهم . ولقد أبلغ منه العجب كل مبلغ ، بل لقد أسهر عينه ، وقرح كبده ، خبر إسلام رجل « قريش » « أبى بكر » بن « أبى قحافة » الذى كان من رجال الذروة العليا فى « قريش » . إنه عالم أنسابها وراوية تاريخها وآدابها ومن أبعد رجالها شهرة بين قبائل العرب فضلا عن ثرائه وسعة نفوذه . . إن الخطر إذن ، قد بدأ يقترب : لقد كنا نحدث أنفسنا بأن إسلام الضعفاء أنفسهم لتأثير « محمد » أمر غير ذى خطر . . فكيف اليوم بصبوء رجل كان عندى فى المكان الأول ، وكل الناس وراءه .

---

(١) الحفاظ : شدة المحافظة على الشيء .

هذه بلاشك فاتحة الخطر الأكبر.. أ أذهب إلى « أبى بكر » هذا الصابئ الخطير لأقرنه بمحمد هذا الذى فتنه واستولى عليه ، وأريح الناس منهما بسيفى هذا ؟ لكن كيف ؟ أليس الفتق يكون اليوم أوسع ولا تكون لراقع فيه حيلة بعد ؟.. ياللفتنة العمياء الصماء.. وايم الله، لو أن عشرة من الأقوياء وراء « أبى بكر » دخلوا إلى حظيرة « محمد » لباتت « قريش » على خطر التعبئة للحرب يواقف بعضها بعضاً ، ويزاحف[1] الأبناء آباءهم والإخوة إخوتهم . ويا سوء مصيرك يا « عمر » لو قدر لك أن ترى بعينك ذلك اليوم الأنكد .

٦ ــ إسلام عمر

لم يكن المسلمون ، فى شعاب « مكة » ودروبها ، يكرهون كلمة كما يكرهون اسم « عمر بن الخطاب » ، ولا يفرقون[2] من شيطان فى عتمة الليل ، كما يفرقون من ظل « عمر » فى رائعة النهار . وكان أشقاهم حظاً من تجمعه به ساعة نحس فيذوق منه الهول الأكبر .

واتفق أن خرج « عمر » فى يوم شديد الحر ، بعد أن مل التريث والانتظار ، يشق دروب « مكة » مخترطاً سيفه ، والحنق قد بلغ منه منتهاه، فلقيه رجل قرشى من « بنى زهرة » فقال له : إلى أين ؟ إلى أين

---

(١) يزحف بعضهم إلى بعض فى الحرب .

(٢) الفرق: الخوف .

يا عمر ؟ فقال : إلى دار « ابن الأرقم » ، حيث يختبئ « محمد » ذلك الصابئ الذى فرق « قريشاً » لأقتله . . فقال له الزهرى : هل أدلك على ما هو أهم لك وأعظم ؟ . . إن هذا الأمر قد دخل بيتك . . فارتاع « عمر » وقال : وكيف ذلك ؟ . . قال الزهرى : إن أختك وختنك[1] قد صبوا ودخلا فى الدين الجديد . . وهنا خيل لعمر أن الدنيا تنهار من حوله ، دون أن يدرى ما يأخذ وما يدع . وبحركة لا شعورية وجد نفسه يسير صوبَ بيت أخته « فاطمة » حتّى دفع الباب فى وجه ختنه الذى خرج ليفتح له بعد طرق شديد ، وهجم « عمر » على الحجرة دون تمهل فلم يجد سوى أخته وبجانبها صحيفة فيها شيء من القرآن كانا يتلوانه ، وهو لا يزال على الباب يسمع هينمة التلاوة ، ولا يدرى سرها . . وعرف « عمر» من الصحيفة أن أخته وختنة قد أسلما حقاً ، فألقى بزوج أخته إلى الأرض وراح يضربه ضرباً شديداً ، فتدخلت أخته « فاطمة» لتدافع عن زوجها فضربها « عمر » فى جبهتها بظهر يده ضربة سال لها دمها على وجهها ، فصرخت وراحت تعلن إسلامها على مسمعه وتقول : افعل بنا يا ابن « الخطاب » ما أنت فاعل . فوالله لن نرجع عما دخلنا فيه من دين « محمد » .

وذهل « عمر » لشجاعة أخته وإخلاصها لزوجها وثباتها العجيب على دينها . وهدأ لحظة فرأى دمها الزكى وقد صبغ وجهها ، دون ذنب صنعته .

---

(١) الختن: زوج الأخت أو البنت .

وهنا جلس فى دهشة ووجوم، وأطرق نحو الأرض يلهث غضباً، ولا يدرى أعلى هؤلاء المساكين يغضب أم على نفسه التى دفعته إلى هذه الجناية المنكرة ؟ وراح ضميره يؤنبه ، وشعر بأحاسيس الندم والعطف على أخته وعلى زوجها الذى هو ابن عمه وشطر دمه ونسبه . وبدا له أن يتأمل ما فى الصحيفة التى كانت ملقاة على الأرض بجانب أخته فإذا هو يقرأ فيها : (طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) . . لم يكد « عمر » يتم قراءة هذه الآيات . إلا وقد سرت فيه رعدة تتمشى فى أعصابه وتهز كيانه وتحمله إلى عالم من السمو لا عهد له به من قبل . . وهنا راح يفكر فى صمت ويستعيد بخياله كل ما مر به من حياته : طفولته وصباه ، وقسوة أبيه « الخطاب » ، وما كان يلاقى منه من آلام لم يكن يرفه عنه من قسوتها إلا حنان أخته تلك التى يسيل دمها بيده الأثيمة المنكرة للجميل ! . بيده التى طالما التقطتها أخته هذه بين يديها الناعمتين كلما أزمع سفراً أو عاد من سفر ، وراحت تشبعها تقبيلا وتهزها هز الشوق والحنان . ثم تملأها بطيبات ما كان يتاح لها من شهى الطعام وعذب الشراب . وعلى الخصوص شراب النبيذ الذى كان أحب شىء إلى نفسه لقد كانت تبرده له بطرق لا تتأتى إلا لمن لطف ذوقه ، ورق حسه ،

وأحب وأخلص بكل ما للحب من قوة . . أخته هذه التى ما لمحت على ثيابه غبار سفر إلا نفضته ولا وسخاً منه إلا غسلته ، وتركت ثيابه ترف حسناً ونظافة وطيباً . . أمثل « فاطمة » يجازى بمثل هذه الفظاظة ؟ ثم أيتحدث الناس عن « عمر » بعقوق القرابة وقطع الأرحام وظلم الضعفاء ، وهو الذى كان طوال حياته يكره الظلم كما يكره الموت ويبذل فى دفعه كل ما يملك من جهد ؟ يا له من ضلال مبين لا يدرى كيف وقع فيه .

ثم من أجل من يرتكب كل هذا الوزر ؟ أمن أجل الأصنام وإرضاء لعبّادها الجهلاء ؟ يا لعنة الله على الأصنام وعلى عبّادها الجهلاء ماذر قرن الشمس ، وما دارت بمكة جبالها الشماء . . لم لم تقل لنا الأصنام كلاماً عذباً مثل هذا القرآن الذى أضرب من أجله أختى وختنى ؟ إنه لا الأصنام ولا عبّادها الجهلاء ولا كل من طلعت عليهم الشمس من فصحاء العرب يقدرون على شىء من هذا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

وفجأة نفض « عمر » بدنه الرائع الطول فلم يرياه إلا واقفاً يسألهما كيف يتيسر لقاء « محمد » ؟ فكادا يطيران فرحاً بما بدا لهما من أمره . وسُمع من وراء ستار كان فى زاوية من الحجرة هتاف « خباب بن الأرتّ » ذلك القين (١) المسكين الذى كان من أسرع الناس إسلاماً وأحفظهم للقرآن . والذى كان يعلم « سعيد بن زيد » وزوجته « فاطمة » كل ما يحفظ من القرآن آية فآية . وكان قد اختبأ وراء الستار لما طرق « عمر »

---

(١) القين الحداد .

الباب طرقاً مزعجاً لأنه توقع شرًّا وراء طرق لم يسمع من قبل مثله شدة وعنفاً . خرج « خباب » هاتفاً مكبراً مبشراً « عمر » بأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك « عمر بن الخطاب » أو بأبي جهل « عمر بن هشام » .[١] وقال : أرجو يا « عمر » أن تكون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قد استجيبت فيك .

خرج « عمر » من فوره يقصد إلى دار « ابن الأرقم » فى أسفل « الصفا »[٢] حتى انتهى إلى الباب فطرقه ، والمسلمون مختبئون فى داخلها . وذهب بعض أهل الدار فنظر من خلال الباب فعرف « عمر » وعاد مرعوباً ينذرهم بأن « عمر » على الباب . فراحوا يستعدون لأمر عظيم . ويأتمرون بقتله إذا بدأهم بالقتال ، مهما كان وراء ذلك من أخطار . ولكن النبي السمح الحليم أمرهم أن يفتحوا له . ودخل « عمر » قاصداً إلى الرسول الكريم وجلس بين يديه فى خشوع وأدب جم وتلا كلمة الشهادة ، وكبر المسلمون تكبيرة سمعت فى الدروب المجاورة لدار « ابن الأرقم » . وكان ذلك أول إعلان لصوت الإسلام الذى ظل نحو ثمان سنوات يعانى الكبت والاضطهاد كأنه فى دار غربة .

وبعد خوض مرح فكه فى بعض الشئون نظر « عمر » إلى النبي صلى

---

(١) كان من أكبر زعماء « قريش » وهو من بيت « بنى مخزوم » أخوال « عمر بن الخطاب » .

(٢) مكان قرب الكعبة .

الله عليه وسلم ، وقال له : يا رسول الله ألسنا على الحق ؟ قال : بلى . . قال « عمر » ففيم الاختفاء ؟ فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فى صفين على أحدهما « عمر » وعلى الآخر « حمزة بن عبد المطلب » عم النبي (ص) وساروا حتى انتهوا إلى « الكعبة » فطافوا وصلوا بالمسجد الحرام وأظهروا إسلامهم لا يخشون غير ربهم أحداً . أما من كانوا هناك من المشركين فقد أخذوا بغم لا طاقة لهم به ، وعرفت فى وجوههم غبرة من الغيظ لاتخفى على أحد . وبإسلام « عمر » تم عدد المسلمين أربعين وإن كانوا بإسلام « عمر » قد أصبحوا ألفاً أو يزيدون . ولقبه النبي (ص) بالفاروق . وهو أول لقب من نوعه حمله رجل فى الإسلام .

ومما يعد من عجب الزمان أنه بينما كان الناس يستخفون بإسلامهم ، خوف ما ينزل بهم من بطش المشركين وعذابهم ، نجد « عمر » يأبى إلا أن يعلن إسلامه فى طول « مكة » وعرضها . ولم يكفه أن راح هو يعلن به كل من يقابله ، بل راح يبحث عن إخبارى متخصص فى الإعلان حتى وفق إلى أشهر رجل برع فى هذه الوظيفة فأخبره خبر إسلامه . فإذا الرجل ينطلق صارخاً فى كل ملأ [1] من أملاء المشركين رافعاً عقيرته : صبأ « عمر بن الخطاب » صبأ « عمر بن الخطاب » . وإذا « مكة » ، على غير العادة فى إسلام كل من أسلم ، تنقلب بعد هدوئها إلى شبه ثورة عارمة كأنما تريد أن تشعل حرباً عواناً لا تبقى ولا تذر . . كانت الجموع الثائرة المجنونة تنطلق صارخة : أين الصابئ « عمر بن الخطاب » ؟ أين

---

(١) الملأ الجماعة من كبار القوم .

الصابئ « عمر بن الخطاب » ؟ . . واتفق أن لقيهم « عمر » فى طريقه يهدر كالفحل الثائر فعرف ما يقصدون ، وصرخ فيهم معلناً إسلامه وهجم عليهم وأحاطوا به فراح يضرب فيهم خبط عشواء فيكب هذ على وجهه ، ويلقى ذاك على ظهره ، وهم ينهالون عليه من كل حدب فوجاً بعد فوج حتى أعيا وجلس لاهثاً يلاقى ضرباتهم بذراعيه الطويلتين . وإذا بالعاص ابن « وائل »[1] السهمى وهو من هو فى « قريش » جاهاً ونفوذاً ، يقبل نحو الناس ، وقد سال بهم الوادى ، فيقول لهم : ما وراءكم ؟ فيقولون : نريد قتل هذا الصابئ « عمر بن الخطاب » فيقول لهم : أو تحسبون قومه « بنى عدى » سيتركونكم بذلك ؟ ويفيق الناس من ثورتهم على صوت « العاص » وهو يقول لهم : انصرفوا فما ذاك لكم بسبيل . ويصل النبأ إلى أحد أخوال « عمر » من « بنى مخزوم » أصحاب الجاه والنفوذ فيعلن جواره لعمر . .

وهنا نرى « مكة » وقد هدأت ثورتها على مضض فى حلاقيم المشركين وغيظ يأكل صدورهم . وتنعقد المجالس والنوادى حول ذلك الحدث المثير ، وحول ذلك الجوار الخاطئ الذى ظفر به « عمر » من أحد أخواله من زعماء المشركين . . ويمشى « عمر » مختالا فى طرق « مكة » ودروبها ينظر المشركون إليه ، فى حسرات وغيظ محتدم ، ويشير إليه الصبيان بأيديهم من بعيد ، وتختلس النساء والعذارى النظر إليه من وراء أبوابهن وكوى[2]

---

(١) هو والد البطل الشهير « عمرو بن العاص » .

(٢) الكوى : النافذ الضيقة .

مساكنهن ومصاريع بيوتهن ، كأنما هو عجب جاء من عالم آخر لا عهد للناس به من قبل . . وكم من عجوز مشركة كانت الغيرة تأكل قلبها فلا تجد مخففاً لغيظها أكثر من أن تقول : عجباً للدنيا ! لقد جاء من الزمان عجبه الأكبر ، وأصبح ابن « حنتمة » هم « مكة » المقيم المقعد . ويا ترى ماذا عند القدر بعد ذلك من عجائب ؟ .

وتمر على هذا الحدث أيام وليال ، والفتى العبقرى لا يهيجه أحد ولا يتعرض له بالأذى متعرض . بينما لا يكاد يوم يمضى دون أن ينزل الأذى ألواناً بضعاف المسلمين من الأرقاء والفقراء ومن لا قبيل لهم من الشرفاء يحميهم ويجيرهم .

ويعجب الفتى العجيب لذلك كله . . كيف يضرب غيره ، كل يوم وكل وقت ، بينما هو لا يضرب ولا يهاج ؟ . . وراحت أذنه تلتقط من حوله الهمس أو الجهر بأنه لا يحميه من الأذى إلا جوار أخواله « بنى مخزوم » . وتمتعض نفس الفتى ، ويرى فى هذه الحماية ما لا يشرفه ولا يرفع رأسه . . وراح يقول لنفسه : إذن أين التضحية فى سبيل الدين والمبدأ ؟ وأين الجهاد ؟ وأين المحك الذى يظهر الأصالة من الزيف والإخلاص من النفاق ؟ ومن يدرى نفسى ويدرى الناس بأنى لست منافقاً أتقرب إلى جماعة المسلمين لآخذ بينهم مكاناً ممتازاً ، ومن ناحية أخرى يبسط على حمايته أحد أخوالى المشركين الأنجاس المناكيد ؟ أمن الرجولة والنجدة أن أعود من أعمالى وأشغالى فأسمع بمن ضربوا وركلوا وعذبوا ، من الضعفاء

والمساكين من جماعتى ، ثم أرقد فى مضجع امرأة أحلم بالأمن والنجاة والسلامة وحدى ، ثم أدعى بعد أننى رجل لا يزال فى فتوة الشباب وحميّاه؟ أين أيام الشقاء والمخاطرة فى البادية؟ وأين الزعامة التى كان يشهد لى بها هناك أجداع الرعاة من قريب وبعيد؟ ولماذا كنت إذن ، أتهجم على « محمد » وعلى أصحابه وأتابعهم وأضيق عليهم فى كل مكان وأنا على شركى وضلالى؟ لماذا وأنا الآن مسلم وسط جماعة مضطهدة يعجبنى السلام ، ويطيب لى المهجع ، وتنعم عينى بالنوم كأنى لست منهم ولا نسب يجمعنى بهم؟ أكان قصاراى [1] أن أتظاهر بالشجاعة والجرأة على المسلمين الضعفاء لأن ورائى من يحمينى من جماعتى المشركة ويشجعنى على اضطهاد المساكين الذين لم يجنوا ذنباً أكثر من إيمان بربهم وحرص على عقيدتهم؟ لا . . لن أرضى بهذا الجوار من خالى . وليذهب هو وجواره إلى الجحيم . . لماذا لم يمنح هذا الجوار لغيرى ممن يضطهدون كل يوم وكل صباح وكل عشى؟ لشد ما أصبح يؤرقنى هذا الجوار ويذود النوم عن عينى . . ولأذهبن إلى خالى فأرد عليه جواره حتى أرانى أضرب كما يضرب غيرى ، واضطهد كما يضطهد كل فرد من جماعتى ، وإلا فلست « عمر » الذى عرفته فى الماضى وأصبحت الآن أنكره ولا أومن به .

وينتهز الفتى العبقرى فرصة فيذهب إلى خاله ويطاب منه استرداد جواره . . وتأخذ خاله عاطفة الخؤولة ونعرة التعصب للدم والنسب فيأبى

(١) أكان آخر جهدى .

رد الجوار . . ولا يجد « عمر » سبيلا إلا أن يغلظ لخاله فى القول ويصر على رد جواره إليه ، فيسترد الرجل جواره ويعود « عمر » فرحًا بأنه سيُضرب ويَضرب حتى يظهر الله الإسلام .

ويعود « عمر » فى طريقه نحو جماعته العزيزة عليه ، وهو يحلم بمشاطرتهم فى الضراء قبل السراء . . ويقول لنفسه : الآن يطيب لى أن أحمل لقب « الفاروق » وأنا قرير العين . ولن أكون « الفاروق » إذا تركت للمشركين عينًا تقر بنوم إلا أن يخلّوا بيننا وبين ربنا نعبده كما يشاء أن نعبده ، ونطيعه كما يشاء أن نطيعه ، ونضحى فى سبيله بكل ما نملك من نفس ومال ونشب . ويذاع الخبر العجيب فى ربوع « مكة » ودورها فيفرح له المشركون لأن « عمر » أصبح يواجههم وحده ، ويتعجب له المسلمون لأنه بحق مما يدعو إلى العجب . لقد كانت الحماية مبسوطة على « عمر » ، وكان الأمن فرصة متاحة له ، فوق نعمة الإسلام التى حظى بها . ولكنه أبى إلا أن يتحمل الأذى كما يتحمله أمثاله . فما أعجب أمره وما أغربه !

٧ ـ هجرة « عمر » إلى « يثرب »

وإذا كان الإسلام قد عز فى « مكة » بإسلام « عمر » ، وبدأ الصراع العلنى بين الحق والباطل ، بعد أن كان الأمر عدوانًا من جانب

المشركين ، وصبراً على الأذى من جانب المؤمنين ، دون اجتراء منهم على رد الأذى بمثله ، إلا بعد إسلام هذا الشاب المناضل ، فإن القوة فى الحقيقة ، كانت لا تزال فى جانب أنصار الشرك وأعوانه . وماذا تغنى جرأة « عمر » وشجاعته . وعدد المؤمنين ما كان يزيد عن أربعين يوم إسلامه ؟ وماذا عسى يبلغ جهد أربعين أو خمسين أمام جحافل الشرك التى تحيط بهم وتعد بالآلاف من « قريش » وحدها غير ما يحاصرهم فى القبائل الأخرى من عشرات الألوف ، من مساعير الحرب وأنصار الظلم والطغيان ، وأعداء الدين الجديد ؟ لقد كان الأذى لا يزال على شدته ، وميزان الصراع لا يزال غير متعادل الكفتين . إن كل ما جد فى الأمر هو أن حزب المؤمنين قد قوى ، إلى حد ما ، واجترأ على إعلان دينه وعقيدته ، وأصبح يرد اللطمة بمثلها ، ويدفع الأذى بأذى مثله ، عند ما يكون المعتدى عليه قريباً من جماعة المسلمين ليتاح له من يأخذ بناصره ، أو عند ما يكون مؤمناً قوياً مثل « عمر » الذى لا يوقر ولا يهاب معتدياً ، مهما كانت مكانته .

لذا لم يكن من الهجرة بدّ لكى يجد المسلمون متنفساً لحريتهم وعقيدتهم بعيداً عن دار البغى والعدوان . ولهذا فكروا ، أول الأمر ، فى الهجرة إلى الحبشة فوجدوا فيها جواراً طيباً واستقبالا حسناً من ملكها العظيم وشعبها الكريم . ولكن الهجرة إليها فى الحقيقة لم تكن أكثر من مطاولة ومصابرة ومحاولة للثبات فى وجه الظلم والطغيان ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . وكيف يكون للهجرة ثمراتها فى بلد تختلف عن بلد أصحاب الدعوة الجديدة

فى الدين واللغة، وتبعد عنها، ويفصلها عنها بحر خضم لم يتعود العرب ممارسته فضلا عن أسباب أخرى ليست من مهمتنا فى هذه الصفحات المحدودة ؟

لذا بدأ المؤمنون يتجهون إلى تركيز هجرتهم فى « يثرب » تلك المدينة الهادئة العربية التى تقع على الجادة[1] الواضحة ما بين « مكة » و « الشام » ولها ميزة التحكم فى طريق قوافل « مكة » ذات الأحمال الثمينة والثروات الضخمة . فضلا عن أنها دار « الأوس » و « الخزرج » ومن أسلم منهما على يد النبى (ص) فى بيعة العقبة الشهيرة . وأنها دار « بنى النجار » أخوال « عبد المطلب » جد النبى (ص)، فلها أكثر من ميزة على غيرها من البلاد ما قرب منها وما بعد .

من أجل هذا كان المؤمنون يقصدون إليها تباعاً ، متسترين تحت طيلسان الليل البهيم ، أو مظهرين وجهة أخرى غيرها حتى إذا قاربوها غيروا وجهتهم إليها فى خفة وحذر . . والويل كل الويل لمن كان يقع فى أيدى المشركين ، وهو لايزال فى مرحلة الاستعداد للهجرة ، أو فى طريقه إلى دارها ، حيث كان يجرجرًا ، ليرسف فى الأغلال والقيود ويذوق من العذاب أبشع ما يتصور .

أما « عمر » فأبت له حميته وعزته وشجاعته ، وأبى له بلاؤه فى سبيل دينه أن يخرج مستخفياً كما كان يفعل غيره ، أو يعرض بطريق ثم يقصد غيرها . . إنه على الضد من ذلك ، أعد عدته بعد أن شاور

---

(١) الجادة : الطريق الواسع .

النبي (ص) ودبر معه الخطة ليلحق بجماعة المسلمين هناك فيكون لهم قوة ومدداً ليس مثله مدد ، حتى يؤذن للرسول (ص) بالهجرة فيلحق بهم هناك .

أعد « عمر » عدته ، وجهز راحلته وزاده ، ولبس ثيابه ، وتقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، كما لو كان ذاهباً إلى ميدان حرب قريب الساحة . ثم مال إلى « الكعبة » فطاف بها سبعاً . ثم صلى فى مسجدها صلاة متمكن مطمئن . ثم طاف بحلق « الكعبة » واحدة واحدة يستلمها بيده وهو إليها مشوق وعلى فراقها مرغم . ثم لاحت منه التفاتة فرأى ملأ من « قريش » جالسين هناك فنظر إليهم وقال : شاهت الوجوه . لا يرغم الله إلا هذه المعاطس[1] . من أراد منكم أن تثكله أمه[2] أو ييتم ولده أو ترمل زوجته فليلقنى خلف هذا الوادى . . ثم تركهم ومضى وكأنما غشيت القوم غاشية فلم يتبعه أحد سوى جماعة من ضعفاء المؤمنين فوقف معهم وعلمهم وأرشدهم وسار فى طريقه .

والآن ورغم ما بيننا وبين زمانه ومكانه من أبعاد سحيقة نستطيع أن نبعث بعين الخيال لكى نرى شاباً جلداً طوالا بعيد ما بين المنكبين قد لبس ثياب السفر النظيفة الرائعة ، ودجج نفسه بالسلاح ، وراح يتأرجح فوق راحلته وعلى وجهه الأبيض المشرب حمرة آثار هموم لا يعرف

---

(١) أى لن يذل الله إلا أنوفكم .

(٢) الثكل فقد الأم ولدها بالموت .

مداها ولا تدرك مكامنها ومغاورها من صدره البعيد الأغوار . كان لا يفتأ يتلفت حوله فى كل جهة ويرمى بنظراته الشاردة إلى كل ما حوله من كائنات ، كأنما راحت نفسه تتشبث بهذا الثرى الذى كان أول أرض مس جلده ترابها الحبيب، وبهذا الضياء الرائع الذى كان أول ضياء داعب حدقتيه ، وبهذه الجبال الشماء التى تبهر عظمتها كل ناظر ، وبهذه النباتات البرية من إذخر وجليل[1] وأنواع أخرى كم زهت خضرتها لعينيه ورفت رفيف الجمال لناظريه ، وبهذه البيوت التى طالما دلف إليها فى طفولته ، غير هياب ولا وجل ، فرأى فيها لداته وأترابه وكلم فيها صغاراً وكباراً ورجالا ونساء وعذارى كروائع النجوم ، وأنس بما فيها من نشاط وحياة . وبهذه الطرق والدروب التى درج فيها قبل أن يعرف لم يدرج ؟ وأين يدرج؟ وإلى أين تنتهى خطاه ؟ . لقد تقسمت نفسه الآن وتفصلت روحه قطعاً . إنه يقصد إلى « يثرب » بعقله ومنطقه وآماله ومطامعه العظام . ولكنه، بعواطفه وأحاسيسه الطبيعية ، لا يزال متشبثاً بمكة وبكل ما فى « مكة » من جمال وجلال . ثم يذكر أمه وأباه وأخته وأخاه وعش القرابة السعيد الذى مزقته الأيام وغيرته الليالى . وتلوح له شعاب « ضجنان[2] » فجأة فيذكر صباه وشبابه ، وراء القطيع فى البادية فتنحدر دموعه تباعاً على

---

(١) نوعان من نبات أرض « مكة » .

(٢) ضجنان جبل فى شمال « مكة » كان « عمر » يرعى فى وديانه قطعان أبيه « الخطاب » انظر الفصل ٣ — « عمر » فى البادية .

وجنتيه الممتلئتين شباباً ونضارة وقوة . وبلا قصد ولا روية يروح ينظم قريضاً يردده لسانه ، ويبعثه جنانه ، ليسجل حياة ذات ألوان ، وأحاسيس ذات أفنان. ولا يقطع عليه فيض مشاعره وأحاسيسه إلا إناخته راحلته الزفوف[١] فى نهاية المرحلة الأولى لتأخذ حظها من الراحة وتستعد لطريق طويل .

وبعد عشر ليال من سير مغذ ممعن سريع يوافى «عمر» « يثرب » ، فى عشرين مهاجراً جمعته بهم الطريق وأنسوا به وأنس بهم . ويدخل المدينة الموموقة[٢] ويتأمل بيوتها وطرقها وعالمها الجديد عليه . وينظر الناس إليه فى موكبه نظر إكبار وإعظام . وتبيت « يثرب » تتحدث عن قادم جديد تدل مطالعه على أن سيكون له بهذه الأرض شئون وشئون .

ويتلقى المسلمون « عمر » بشوق جارف وفرح ظاهر ويلتفون حوله احتفاء واحتفالا بمقدم من لقبه النبى (ص) بالفاروق وأعز الله به الإسلام . وراحوا يتسابقون إلى الظفر بضيافته وتكريمه . ويعقدون حوله مجالس السمر . ويسألونه عن أحوال المؤمنين فى « مكة » وعن أحوال إخوانهم من الضعفاء الذين لا يستطيعون الهجرة ولا يقدرون على دفع الظلم عن أنفسهم أمام الطغاة المشركين .. وكانوا يألمون لأخبارهم ويذرفون الدموع الحارة فيبكون ويبكى معهم « عمر » ثم يكفكف دموعه ، ويعدهم يوم النصر الذى لا شك أنه آت وكل آت قريب . ويسألونه متى يحضر

---

(١) السريعة السير .

(٢) الموموق : المحبوب .

النبي (ص) فيقول لهم : هو على أثرى[١] إن شاء الله . وبعد ثلاثة أيام فى الضيافة والتحدث والتشاور فى مختلف الشئون يأبى « عمر » على مضيفيه ومنزليه إلا أن يرشدوه إلى السوق ويهدوه إلى جميع مصادر الكسب والربح ليسعى على رزقه كما يسعون ويتكسب كما يتكسبون ولا يكون عالة على ذي كسب أو ثراء مهما بلغ من ثرائه . .

وتمر الليالى والأيام تباعاً فتصبح دار الهجرة ميداناً رحباً تبرز فيه مواهبه وتتألق عبقريته أكثر فأكثر . كان هناك الموجه والمستشار والواعظ والناصح الأمين لجميع المؤمنين صغارهم وكبارهم . يرجعون إليه فى مشاكلهم الدنيوية والدينية ، ويرجع هو فيما يشكل عليه إلى من يعرف فيهم الخبرة والقدرة والكفاية ، جاعلا نصب عينيه اتباع الحق ، أينما كان ، والقدوة برسول الله (ص) فى كل ما كان يقول أو يفعل .

٨ ـ « عمر » فى المدينه بعد هجرة النبي إليها

وصمم النبي (ص) بعد طول انتظار وشوق ، على هجر دار الشرك لا عن ضعف ولا عن عجز ولا هزيمة . بل لتكون الدعوة أنجع وأسرع تأثيراً وأتم نتيجة وأعم نفعاً . وفى عام ٦٢٢ للميلاد خرج من « مكة » بزمالة صديقه الأعظم « أبى بكر بن أبى قحافة » ، فاستقبل فى « يثرب »

---

(١) أى أنه يجىء بعدى بوقت قليل .

استقبال الفاتحين. وتكتلت حوله هناك قوة إسلامية لا يستهان بها . ولما كان يحب الجمال فى كل شىء فقد سمى « يثرب » « المدينة » ودعا الله بأن يبارك لساكنيها فى مُدّها وصاعها ، وأن يرزق أهلها النجح والتوفيق فى كل أمر من خير الدنيا والآخرة . . وكان وزيره الأكبر هناك وأعظم مستشاريه « أبا بكر الصديق » رفيقه فى الهجرة من مبدئها إلى نهايتها وصاحب اليد الطولى فى الدفاع عنه ، أيام تبليغ الرسالة ، فى «مكة» وأكرم من واساه بماله فى سخاء تضرب به الأمثال . وأول من صدق دعوته من الرجال فى غير إباء أو تعلل .

وكان « عمر » يعرف ذلك كله لأبى بكر ويبجله ويعظمه ويتخذه مثالا له ، فتوثقت بينهما روابط الصداقة والود وصار « عمر » الوزير والمستشار الثانى للنبى (ص) بعد « أبى بكر » .

وبقدر ما كان « أبو بكر » رحيما ليناً كان « عمر » شديداً لا يتهاون فى أمر يرى فيه فتحاً لباب الفوضى والجرأة على الحق والتهاون بالدين والشريعة لقرب عهد الناس بالجاهلية . وبهذين الوزيرين الحكيمين سارت الأمور فى طريق النجاح والفلاح وانتظم الأمر لأول حكومة إسلامية فى « المدينة » التى أصبحت ، بعد «مكة» ، العاصمة السياسية الأولى ، كما أصبحت المركز الاقتصادى الثانى بعد «مكة» . وبدأت حركة العمران والتطور الاجتماعى تظهر فى « المدينة » بشكل واضح . وبدأت المعاهدات السياسية تعقد ما بين المؤمنين وبين يهود « المدينة » أحياناً ، وأحياناً مع

قبائل العرب القريبة من « المدينة » ، لكى يتفرغ المؤمنون لصراع مرير بينهم وبين « مكة » دار الشرك وقلعة « قريش » العظمى ، كفاً لعدوانهم وبغيهم. وكان النبى (ص) لايعدل بأبى بكر وعمر أحداً من أصحابه . وعليهما كان يعتمد فى جل الأمور الهامة حتى لقد كان أصحابه لا ينفكون يرونه يبتسم لمرآهما ويقول : هذان السمع والبصر . . كما كانوا دائماً يسمعونه يقول : فعلت كذا أنا و « أبو بكر » و « عمر » ودخلت أنا و « أبو بكر » و « عمر » وخرجت أنا و « أبو بكر » و « عمر » . . وكان يقول فى وصية له : اقتدوا باللذين من بعدى : « أبى بكر » و « عمر » .

وتمر الأيام تباعاً فيكثر عدد المؤمنين فى « المدينة » وتنتظم شئون الدين والعبادة والتعليم . ويفكر المؤمنون فى بدأ الصراع المرير بينهم وبين « مكة » . . وتكون الخطة الأولى فى هذا الصراع أن يقطعوا على « قريش » طريق تجارتها إلى « الشام » وهى أهم مورد اقتصادى تملكه فى ذلك الزمان . وتأتيهم الأخبار بأن أعظم عير لقريش فى « الشام » ستمر بالمدينة بعد أيام منحدرة نحو « مكة » . . ويترصد المؤمنون لهذه العير فى الطريق المعتاد المار بالمدينة . ولكن رئيس العير « أبا سفيان » بن « حرب » قائد « قريش » وزعيم « بنى أمية » الأكبر كان حذراً فأرسل من يتنسم له أخبار طريقه. فلما عرف جلية الأمر مال بالعير إلى يمينه وأخذ طريق شاطئ البحر التى تسمى طريق « تهامة » ، فنجا بعيره وما تحمل من ثروات « قريش » . ولكن « قريشاً » كانت ، بناء على ما ورد إليها من الأخبار ، قد أعدت

جيشاً معبأ بالعدد والعدة واتجهت إلى الشمال بغية الدفاع عن عيرها . . فأرسل إليهم « أبو سفيان » بأن يرجعوا لأن العير قد دخلت « مكة » سالمة . . ولكن أبا جهل « عمرو بن هشام » رأس الطغاة بمكة من أعداء الإسلام ركب رأسه وأبى ألا أن يتظاهر بالقوة إرهاباً للمسلمين بل للعرب كلها حتى لا تحدث أحداً منهم نفسه بمثل ما فعل « محمد » وأصحابه . وعلم جيش المسلمين فى « المدينة » بقصد « قريش » وعلى رأسهم « أبوجهل » فانحدروا خفافًا لملاقاة جيش المشركين الذى يبلغ ثلاثة أمثال جيش « المدينة » . وبعد حرب طاحنة كان النصر لجيش المؤمنين وفقدت « قريش » سبعين قتيلا وسبعين أسيراً جلهم من صناديدها وصفوة رجالها . وباتت « مكة » أرض الأمن والسلام فى جنازة كبرى وحزن شامل بما جره عليهم بغى « أبى جهل » وتجبره . وكان هو نفسه من القتلى . ولنرسل بعين خيالنا من هذا البعد السحيق لنرى جيش « المدينة » الذى يتألف جله من فرسان « ابنى قيلة [1] » وباقيه من مهاجرة المؤمنين ، وهم يحيطون بالنبي صلى الله عليه وسلم و « أبى بكر » و « عمر » الوزيرين ، فى هالة من العدد والعدة والنصر المبين . وبينما رجعت « قريش » بأفظع هزيمة ، رجع هؤلاء فى فرح ومرح ونشوة ما بعدها نشوة . وكان فرسان « ابنى قيلة » من الأوس والخزرج ، وهم من أشهر أبطال الحرب فى ذلك الزمان ، يهزون رماحهم ويقلبون صفائح سيوفهم اللامعة مزهوين بما نالوا من نصر لدين الله ولمن أووا إليهم من المهاجرين المظلومين . .

(١) هما قبيلتا « الأوس » و « الخزرج » و « قيلة » أم القبيلتين .

ويسير الجيش الراقص الطرب حتى يوافى « المدينة » عالى الراية ، وضّاح الجبين ، ليستقبل فيها بأعظم احتفال عرفته « المدينة » المتواضعة . ويبيت أسارى « قريش » يئنون من آلامهم ومن شد وثاقهم . ويسمع النبى (ص) أنين عمه « العباس » لقسوة الوثاق عليه فيرحمه ويطلب تفريج وثاقه عنه قليلا حتى ينظر فى أمرهم .

ويبدأ مجلس الشورى عمله صبيحة اليوم التالى . ويقترح « أبو بكر » الوزير الرحيم أن يفك الأسارى نظير فداء مالى يؤخذ منهم فيكون أول دخل اقتصادى يتقوى به المسلمون ، وعسى أن يكون مآل أولئك الأسرى إلى الإسلام فتتم للمؤمنين المهاجرين فائدة مزدوجة : الإحسان إلى ذوى أرحامهم ، والحصول على مال جم لا غنى عنه لطالب حرب وجهاد . . أما « عمر » الوزير الشديد الذى لا تأخذه فى الحق هوادة فقد اقترح أحد أمرين : أن يعرض الإسلام على الأسارى فإذا قبلوه أصبح لهم ما للمؤمنين وعليهم ما عليهم . والآخر أن تضرب أعناقهم إذا أبوا وصمموا على الشرك. ولكى ييأس أهل الشرك من لين المؤمنين لهم إلى الأبد ، رأى أن يختار كل مؤمن أقرب الأسرى إليه قرابة ليضرب عنقه . وهنا يبتسم النبى (ص) لعمر العبقرى ويداعبه قائلا : أتقتل يا « عمر » عم « نبيك ؟ فيرد عمر » : نعم يا رسول الله . أقتل كل من يحارب دينك الذى جئت به .

وهنا يزداد إعجاب النبى (ص) بهذا العبقرى الذى طلب أن يكون هو البادئ بقتل أقرب الناس إليه ، تأكيد لإخلاصه لدينه

وكان أعظم مايخشاه ، من وراء إطلاق الأسارى ، أنهم قد يسعون ، مرة أخرى ، فى انتقام رهيب من جماعة المؤمنين إذا ما أطلقوا وهم على دينهم . لأن أكثرهم من صناديد « قريش » ورءوسها الذين لن يدخروا وسعاً للعمل على نصر يعوضون به ما فقدوه فى معركة بدر . . نعم لقد ازداد إعجاب النبى (ص) بهذا العبقرى الفذ ومنحه لقباً آخر هو « أبا حفص » أى الأسد . فكان اللقب الثانى بعد اللقب الذى ناله يوم إسلامه بدار « ابن الأرقم » وهو لقب « الفاروق » . ومع هذا كله تغلب جانب الشورى الأكبر على رأى « عمر » وفازت وجهة نظر « أبى بكر » بالموافقة ، وفدى الأسارى ، وانطلقوا إلى « مكة » . . وراح « عمر » مغيظاً مغضباً ليس عن تعصب لرأيه بل لخوفه على جماعة المسلمين أن تدهمهم كارثة مفاجئة . ولم يكد يمضى وقت قصير حتى نزل الوحى على رسول الله (ص) معاتباً المؤمنين فى إطلاق الأسارى وهم على شركهم . وبينما النبى (ص) وصاحبه « أبو بكر » يبكيان ، لنزول الوحى بالعتاب ، كان « عمر » يستأذن للدخول عليهما فأذن له فدخل وارتاع لبكائهما وبكى لهما ، وسألهما عن السبب ، فقال له النبى (ص) : لقد كاد يصيبنا فى خلافك شر يا « عمر » .

ثم يدور الزمن دورانه ، ويتحقق ما تخوفه « عمر » ، ويعد المشركون عدتهم للانتقام ويدهمون « المدينة » فى يوم عبوس قمطرير ينتهى بهزيمة بشعة للمؤمنين لأن « خالد بن الوليد » قائد الفرسان دار من ورائهم ، بعد أن اعتقدوا هزيمة المشركين وراحوا يتبعونهم ، فأعمل فيهم قتلا وضرباً

فاختل نظامهم وفقدوا سبعين من صناديد الإسلام منهم « حمزة بن عبد المطلب » عم النبي (ص) وأصيب النبي « ص » بجروح بليغة ، وأذاع مذيعوا « قريش » أن « محمداً » قد قتل فكان الكرب عظيما والخطب جسيما .

ولما وقف « أبو سفيان » قائد المشركين الأكبر يسأل : هل قتل محمد ؟ كان الذى تصدى لإجابته « عمر » فقال له : كذبت يا عدو الله ، إنه لايزال حيًّا يسمعك . وكان « أبوسفيان » قد استعد للانسحاب نحو « مكة » مكتفياً بما ناله من نصر معجل فأحب أن يتشفى من المسلمين فصاح بأعلى صوته : اعلُ هبل[1] . فأجابه « عمر » : الله أعلى وأجل . فقال « أبو سفيان » : يوم بيوم بدر . وموعدكم بدر المقبل . . فقال « عمر » : هو لكم موعد إن شاء الله .

وراح الزمان يدور والأحداث تتوالى و « عمر » ملازم للنبي (ص) فى حروبه وغزواته كلها لا يتخلف عنه طرفة عين . ولا يخذله فى حرب ولا فى سلم ، ولا يتخلى عنه فى أية مشكلة من مشاكل الحياة مهما صغرت . وكان يرعد ويبرق إذا رأى من زوجات النبي (ص) شيئاً مما لاتخلو منه طباع النساء ، ما دام يبدو له أن فى ذلك ما قد يكدر النبي (ص) أو يشغله عن تفرغه لربه ، بكل جوارحه وروحه . ولقد عاتبته إحداهن مرة بقولها : حتى علينا يا ابن « الخطاب » والوحي ينزل فى بيوتنا ؟

---

(١) هو الصنم الأكبر لقريش .

وما كان ذلك منه إلا ليزيد النبي (ص) له حبًّا ، وبه إعجاباً . حتى لقد قال فيه : لم أر عبقرياً يفرى فريه [١] . ولو سلك « عمر » فجًّا لسلك الشيطان فجًّا غيره .

وكانت صحبته للنبي (ص) في المدينة يمناً وخيراً وبركة في الدين والدنيا . حتى لقد بلغ من إعجابه به أنه كان يرجع أحياناً عن رأيه الخاص واجتهاده ويأخذ بما يقوله « عمر » . وكان ذلك يحدث على ملأ من الصحابة الكرام ، دون أن يرى النبي (ص) في ذلك غضًّا من مقامه ، أو تطاولا على قدره . حتى لقد كان « عمر » يضرب بعض كبار الصحابة ، غضباً لله إذا بدا له من أحدهم ما يعتبره ضارًّا بالدين والعقيدة . فيعذره النبي (ص) ويسترضيهم بما يرضيهم . وفي هذه القصة الطريفة ما يرينا إلى أي حد بلغ سلطان « عمر » حتى في حياة الرسول (ص) :

كان ملأ من الصحابة ، يوماً ، جلوساً عند النبي (ص) وفيهم « أبو هريرة » تابعه وملازمه لتلقى الحديث وتعاليم الشريعة وأكثر أصحابه حفظاً لأحاديثه وتحديثاً بها . وكان في المجلس « عمر » . فقام النبي (ص) وحده وتركهم جلوساً ، ثم طالت غيبته ففزعوا وخرجوا في أثره . وكان أسرعهم إليه « أبو هريرة » فأدركه في حائط [٢] لبني النجار لم يهتد إلى باب له ، ولكنه رأى جدول ماء ينصب إليه من ثغرة في حائط . فحفر « أبو هريرة »

---

(١) الفرى هنا القدرة على تصريف الأمور وحل كل معقد منها . بسرعة وسهولة .

(٢) الحائط البستان المسور ببناء .

بيده كما يحفر الثعلب ودخل . فلما لقى النبى (ص) أخبره بقلق الصحابة لغيبته عنهم وأنهم خلف هذا الحائط ينتظرونه . فسر النبى (ص) وقال لأبى هريرة : خذ نعلى هذين واخرج فمن رأيته خلف هذا الجدار يشهد أن لا إله إلا الله موقناً بها فبشره بالجنة . . وخرج « أبو هريرة » ومعه النعلان كشهادة على أنه رسول من قبل النبى (ص) ، وكان أول من لقيه « عمر » خلف الحائط . فأسرع إليه « أبو هريرة » يبشره ويخبره بأنه خرج ليبشرهم بالجنة . ولم يكد يتم كلمته حتى ضربه « عمر » بظهر يده بين ثدييه ضربة ألقته على ظهره [١] . فأسرع « أبو هريرة » إلى النبى (ص) شاكياً مجهشاً بالبكاء مما فعله « عمر » به . وكان « عمر » قد دخل وراءه من الثقب دون أن يعطيه فرصة للانفراد بالحديث مع النبى (ص) . فلما عتب النبى على « عمر » فى صنيعه قال له « عمر » : يا رسول الله فداك أبى وأمى . إنى لأخشى أن يتكل الناس فخلهم يعملون . فنظر إليه النبى (ص) راضياً وقال له : فخلهم يعملون . وإذا كان رأى النبى (ص) أول الأمر يرمى إلى تشجيع أصحابه على الأمل فى ثواب ربهم وزيادة الإخلاص لنبيهم ، فقد نظر إليه « عمر » من ناحية أخرى ، وهى أيضاً حق وصواب . لأن كثيرين من الناس إذا اطمأنوا إلى غاية مرجوة وأصبحوا موقنين من الحصول عليها فإنهم لن يكلفوا أنفسهم تعباً فى سبيلها . فما أعظم

---

(١) كان تعجل « عمر » بهذه الضربة ليمنع أبا هريرة من النطق بكلمة البشارة ، ولم يكن سوء أدب كما قد يظن .

عبقرية « عمر » وما أشد حرصه على أن يكون الثواب عن جدارة واستحقاق وجهاد وعمل لا عن مجرد عقيدة وتواكل وتهاون .

أصبح « عمر » فى مجتمع المدينة » أشهر من نار على علم . وأصبحت مهابته تسبقه فى كل طريق يمر فيه وفى كل مجلس يقصد إليه . حتى لقد كان الناس يتجرأون على أعمال فى حضرة النبى (ص) ويتهيبونها فى حضرة « عمر ». ومن طرائف ذلك أن « عمر » استأذن يوماً فأذن له النبى (ص) وكان عنده نساء من « قريش » يكلمنه ويكثرن عليه من السؤال عالية أصواتهن. فلما عرفن أن المستأذن إنما هو « عمر » تركن مجلس النبى (ص) وأسرعن إلى الحجاب . ودخل « عمر » فوجد النبى (ص) يضحك . فقال : أضحك الله سنك يا رسول الله . فقال له : أضحك من هؤلاء اللائى كن عندى عالية أصواتهن فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب . . فقال « عمر » : يا رسول الله أنت كنت أحق أن يهبن . ثم ناداهن « عمر » قائلا : يا عدوات أنفسهن. أتهبننى ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فنادينه : ما ذاك إلا لأن النبى (ص) رحيم شفيق وأنت قاس غليظ . فقال له النبى (ص) والذى نفسى بيده ما لقيت الشيطان قط سالكاً فجاً [1] إلا سلك فجاً غير فجك .

ومن حديث هيبته وكم فيه من طرائف أن النبى (ص) كان جالساً مع زوجه « عائشة » ، ذات يوم ، فسمعا لغطاً وأصوات صبيان ، ثم نظرا

(١) الفج الطريق .

فإذا حبشية تزفن [1] وقد تجمع عليها من يستهويهم اللهو وراحت « عائشة » تنظر إليها والنبي (ص) يسترها بذراعه وجسده، ولا تنظر إلا من تحت إبطه . وإذا بعمر يطلع من أحد الدروب فما إن يلمحه المتفرجون حتى يتفرقوا أسرع من لمح البصر . فقال النبي (ص) : إني لأنظر شياطين الجن والإنس قد فروا من « عمر » .

وهذا « الأسود بن سريع » الشاعر يدخل على النبي (ص)، ذات يوم ويستعطفه ليسمع منه شعراً يثني فيه على الله سبحانه وعلى رسوله . فيرق له ويستمع إليه . فإذا « عمر » يدخل عليهما فيقول النبي (ص) لسريع : اسكت . . ثم يخرج « عمر » في شأن ثم يعود ويدخل مرة أخرى و « ابن سريع » ينشد ، فيقول له النبي : اسكت . . وبعد أن يخرج « عمر » يتعجب « ابن سريع » ويقول : من هذا يا رسول الله الذي سكتني من أجل دخوله ؟ فيقول له النبي (ص) : هذا « عمر ». هذا رجل لا يحب الباطل .

وهنا لا نترك العجب يستولي علينا من قبول النبي (ص) لإنشاد ربما كان فيه لغو باطل ، ومن منعه ذلك في حضرة « عمر » ، لأن النبي (ص) كان أوسع صدراً وأوفر رقة . وكان أعلم بما هو باطل وما هو حق ، فلا يشق عليه أن يرشد « ابن سريع » إلى هذا وذاك في حلم ورفق بأكثر مما يتأتى لعمر .

---

(١) الزفن الرقص .

وتمر الأيام عجالا يتسابقن إلى هوة الماضى ، و « عمر » وصاحبه « أبو بكر » يتابعان موازرة النبى (ص) ومعاونته فى كل شأن من شئون الدين والدنيا، بما لا يتيسر لغيرهما من بقية أصحاب النبي وأتباعه . وينتقل الصراع من دائرة ضيقة بين المؤمنين فى المدينة، وبين المشركين فى مكة ، إلى دائرة أوسع . إذ يحتدم بين المؤمنين وبين يهود « المدينة » من ناحية أخرى، لما عرف به اليهود من بغى ولؤم وحسد وشح وتكالب على الثراء وحب السيطرة الاقتصادية والسعى فى تفريق سكان المدينة من العرب وإلقاء العداوة بينهم، مع قرب أنسابهم واتصال جوارهم ووحدة عنصرهم . . وتدور الدائرة على اليهود فى النهاية، ويجلون عن هذه الأوطان وتتسع دائرة الإسلام، وتصبح « المدينة » العاصمة الأولى للجزيرة العربية وعرش الدولة الجديدة . وتتضاءل أمجاد « مكة »، وتصبح فى المركز الثانى بعد « المدينة » وتتسع دائرة الأنساب والأصهار . ويصبح « عمر » حما النبي (ص) بزواجه « حفصة » ابنة « عمر »، كما صار النبي من قبل زوجاً لعائشة ابنة « أبى بكر » الصديق الأكبر والوزير الأعظم .. وتتسع دائره الحياة فى العاصمة الجديدة من الأنسال الإنسانية والثروات الاقتصادية . وتصبح « مكة » بعد الفتح دار إسلام تتبع « المدينة » وتخضع لها بعد أن ظلت عرش « قريش » فى الجاهلية مئات من السنين . وسبحان المغير الذى لا يتغير . . ويستقيم للإسلام ملكه ويكمل الدين تشريعاً وتنظيما. وتهوى قبائل العرب البادين [1] إلى « المدينة » وتدخل فى الإسلام تباعاً سراعاً . وتصبح « المدينة » الفقيرة

---

(١) سكان البادية .

المتواضعة أعظم حاضرة لذلك العالم العربي البعيد الأطراف، من أواسط « اليمن » حتى تخوم « الشام » . ويحج نبي الإسلام إلى « مكة » حجة الوداع في عشرة آلاف من أتباعه المؤمنين، بعد أن خرج منها خائفاً يترقب، ثاني اثنين إذ هما في الغار ، من نحو عشر سنوات لا أكثر . فما أسرع ما تتغير الدنيا .

ثم تتغير الدنيا أكثر فأكثر إذ يمضى رسول الله (ص) إلى جوار ربه وحبيبه الأعظم تاركاً شريعته السمحة القيمة وديعة في أيدى أصحابه الميامين وتلاميذ مدرسته التي فتحت لهم أبوابها ثلاثة وعشرين عاماً تبدأ بالرسالة وتنتهي بيوم لحاقه بالرفيق الأعلى [١] .

ويصبح « أبو بكر » صديقه الأعظم ووزيره الأكبر وأعظم مضح له بالمال والحياة . خليفة من بعده ، ويشاء الله أن تكون ولاية « أبي بكر » للخلافة مأثرة من مآثر « عمر » بطل هذه الصفحات ، بعد أن كانت على وشك أن تطير من يد « أبي بكر » و « عمر » ومن يد « قريش » آل النبي وعصبته وقرابته .

نعم لقد أوشكت « مكة » بكل أمجادها التاريخية و « قريش » بكل تاريخها الشامخ العريق أن تكون نسياً منسياً في حلبة الزحام الذى ثار غباره في « المدينة » تحت أقدام الأنصار من « الأوس » و « الخزرج » الذين لم ينسوا يوماً أنهم أصحاب الدار العظمى التي فتحت أبوابها لفلول أولئك الهاربين من « مكة » وآوتهم وأنزلتهم على الرحب والسعة . وأن أبطالها

---

(١) أى بوفاته ولحاقه بربه .

الأنصار هم الذين هزموا « قريشاً » فى معركة « بدر » لأول لقاء بين الإسلام والشرك حتى سماهم الله سبحانه « الأنصار » وأثنى عليهم فى كثير من قرآنه العظيم : لذا كان همهم الاستيلاء على الخلافة ، ورسول الله (ص) لا يزال مسجى تحت ثوبه ولما يبرد جسده الشريف . فاجتمعوا فى سقيفة « بنى ساعدة » يريدون صرف الأمر عن « قريش » أصحاب تاريخ « مكة من عهد « إبراهيم » أبى الأنبياء . ولقد كان الأمر على وشك الإفلات من يد القرشيين إلى الأبد ، لولا « عمر » هذا البطل الذى تتضاءل فى أضواء عبقريته كل بطولة . لقد انتهز الخلاف بين الأنصار وكان خلافاً يمكن أن يصلح ويرأب[1] كسره لو تراخى القرشيون يتلكأون بفعل المطامع وكل يحاول أيضاً جرها إلى نفسه .. انتهز « عمر » الخلاف وكان عبقرياً تنفذ نظرته من ألف حجاب فتمزقها وتستبين ما وراءها . وكان لا يضرب ضربته إلا فى الحز المرموق[2] والغرض الموموق . رأى نصف الأنصار يحسدون نصفهم الآخر ويتلكأون عن بيعة « سعد بن عبادة » الخزرجى أكبر زعمائهم ، خشية أن تصبح له ولفريقه السيادة على « الأوس » وهم نصف الأنصار ، ثم لا يزال ذلك قذى فى أعينهم آخر الدهر . رأى ذلك فضرب ضربته القاصدة ونادى بأعلى صوته : من ذا الذى يجرؤ من هؤلاء أو أولئك أن يتقدم على « أبى بكر » صديق الرسول الأعظم وأكبر وزرائه

---

(١) الرأب : الإصلاح .

(٢) المرموق والموموق : بمعنى المحبوب المراد .

فى حياته والذى أنابه النبى (ص) فى الصلاة بالمؤمنين لما غلبه مرض الموت. ثم كانت الضربة الأخيرة فقال : ابسط يدك يا أبا بكر أبايعك . فبسط « أبو بكر » يده فكان البطل الأكبر أول مبايع . وانتهزها « الأوس » وهم نصف الأنصار ، فرصة فتدافعوا يبايعون « أبا بكر » حتى كادوا يسحقون تحت أرجلهم ابن عمهم زعيم الخزرج « سعد بن عبادة » المرشح للخلافة ، وكان مريضاً قد أسند فى فراشه ساعة المؤتمر الحاسم .

ورجع « أبو بكر » من ذلك المؤتمر التاريخى الأكبر ليجهز النبى (ص) إلى مقره الأخير من أعلى عليين ، وليلى الدولة الإسلامية الناشئة التى سيكون لها بعد فى التاريخ شئون وشئون .

أصبح « أبو بكر » الحاكم الأعظم للدولة الإسلامية الناشئة وليس بينه وبين الله أحد . وأصبح وزيره الأعظم بل ومدير الشئون العامة للدولة من أقصاها إلى أقصاها « عمر بن الخطاب » الذى لم تعرف الدولة الإسلامية له نظيراً فى نشاطه وقوته وتوقد فكره ودقة منطقه وشدة حرصه على ما دق وما عظم من شئون الدولة ، وفى إصراره الملحّ الدائم على ألا يختل ميزان العدالة طرفة عين فى ليل أو نهار .

ولقد كانت ردة العرب عن الإسلام وارتكاسهم فى دين الجاهلية، بعد وفاة الرسول (ص)، أعظم محنة تعرض لها المجتمع الإسلامى فى « المدينة » . لقد كاد الأمر يفلت والنظام يختل ، وكاد النصر يعود هزيمة والتقدم يعود تقهقراً وانصراماً . وماذا كان عساه يبلغ جهد « أبى بكر »

ذلك الرجل الضعيف فى بدنه القوى فى إيمانه وروحه ومواهبه ما دام الأمر قد عاد جاهلية وما دام ليس له من الجند والأموال ما يسنده ، لولا أنه كان يجد فى « عمر » ردءاً يسانده ويعاونه ويدبر معه الأمور ويجمع معه الشمل المتفرق ويعالج معه العالم الممزق بعبقرية تعز عن النظير ؟ لقد استطاعا أن يجمعا من الضعف قوة ومن الفرقة اتحاداً ومن التمزق التئاماً وأن يهزما جنود الردة فى معارك طاحنة بحسن إدارتهما وانتخابهما الأبطال الأشاوس ومساعير الحرب من أمثال « خالد بن الوليد » و « أبى عبيدة بن الجراح » و « سعد بن أبى وقاص » ومن رجال الدهاء والمكر السياسى « كالمغيرة بن شعبة » و « عمرو بن العاص » وأمثالهم من فطاحل « قريش » وفحول الأنصار . . أجل . لم يكد يمضى عام واحد حتى عاد إلى الدولة مجدها ورواؤها ووحدتها وانطفأت نار الفتنة وسحق الذين أوقدوها سحقاً ، وأبيدوا واستؤصلت شأفتهم . وأخذت « المدينة » تستعد لعمران على « عمران » وتقدم فوق تقدم ، وأمجاد إثر أمجاد .

وفى هذا المعترك الشديد الزحام المفعم بالصدام لم يكن على الإطلاق يعلو رأس « عمر » ، ولا قدر من الأقدار يعلو فوق قدره ، إلا أن يكون الخليفة « أبا بكر » بحكم منصبه ومكانته وما كان يدخره « عمر » له من إجلال واحترام لسابقته فى الإسلام وحسن بلائه فى الدفاع عن نبيه (محمد) « ص » . وإذا كان « أبو بكر » قد راح يعمل للإسلام بإخلاص كامل ونشاط كامل وتضحية كاملة ، فإن « عمر » كان يساعده بألف

إخلاص ، ويعمل بألف نشاط ، ويقف فى الشئون على ألف رجل ، ويفكر بألف عقل جبار ، ويحرق كل يوم فى التفكير والاهتمام ألف ألف عصب من أعصابه . حتى لقد كان « أبو بكر » يقول له : كنت ياعمر أقدر على هذا الأمر منى وكنت أريدك له فأبيت بيعتى لك وخشيتُ الفرقةوالفشل فأسرعتُ إلى قبول بيعتك لى . بل لقد كان يجد من الأمور ما يتمسك فيه « عمر » بوجهة نظره فلا يجد « أبو بكر » ، وهو الخليفة ، بداًّ من تنفيذ ما يراه « عمر » لظهور الحق وضاحاً فى جانبه .

ولنبعث من هنا بعين الخيال عبر العصور والدهور لنرى وفداً ينحدر من البادية فى يوم شديد الحر تغلى منه النواصى والأقدام بزعامة « الأقرع ابن حابس » و « عيينة بن حصن » . حتى يصل إلى « المدينة » عاصمة الدولة . ويتقدم إلى الخليفة « أبى بكر » هذان الزعيمان المقدّمان فى قومهما حتى لكأنهما ملكان متوجان ، ثم ما أدراك ما قومهما ؟ آلاف مؤلفة من العدد والعدة والنعم الوفيرة والجاه العظيم . إن غضبة منهما تستطيع أن تبعث عشرات الألوف من الفرسان ركباناً على متون الخيل مدججين بالرماح والسيوف لشن غارات على من يريدون دون أن يعلم نهايتها إلا الله .

ويتلقاهما الخليفة بالترحاب والتكريم وينزلهما خير منزل . وفى جلسة معه يسألانه أن يقطعهما أرضاً بالبادية ليصلحاها ويزرعاها . ويساعدهما بعض بطانة الخليفة فيقبل العرض ، بحسن نية ، ويكتب لهما صك الإقطاع ويشهد عليه « عمر » الذى لم يكن حاضراً حتى يكون للصك قيمته

التنفيذية ، ولا يخشى عليه اعتراض ، ما دام « عمر » سيكون من شهوده .

ويفرح الرجلان العظيمان ويذهبان بالصك إلى « عمر » فى حظيرة إبله. حيث كان يطلى بعيراً له بالقطران . ويسلمان فيرد السلام بكل هدوء واتزان ، ودون أى اهتمام خاص لأنه كان بطبيعته ومبدئه ضد كل تمايز بين الطبقات ، وضد كل استعلاء من أى إنسان على أى إنسان . ويمدان إليه الصك فى أنفة وتعاظم ليشهد عليه كما حتم ذلك الخليفة « أبو بكر » . . ويأخذه فى برود ويقرأه حتى يحيط بما فيه . . وبكل برودة يمكن أن نتصورها فى أعصاب رجل ، يتفل على الصك ويحك بعضه ببعض فتمحى الكتابة ، وينهدم كل ما بنياه ، فى طرفة عين ، ثم يلقى إليهما به . ويغضبان أشد الغضب ويتناولان « عمر » بألفاظ نابية.. ولكن العبقرى الذى لم يعرف يوماً قيمة لشخصه ، إلا على ضوء الحق والعدل ، لا يعبأ بشتم ولا تهديد . ويقول لهما : إن رسول الله (ص) كان يتألف قلبيكما بالعطايا والمنح لما كان الإسلام لا يزال ضعيفاً ذليلا [1] .. أما الآن وقد أعز الله الإسلام ففيم المحاباة لكما وإيثاركما على غيركما ؟ أهى أرضى حتى أقطعكماها ، أو أرض « أبى بكر » حتى يتصرف فيها برأيه الخاص ؟ إنها أرض المسلمين يتعلق بها من حقوقهم ما جل وما صغر : حق اليتيم والمسكين وابن السبيل والأرملة والفقير . وما لا يحصى

---

(١) كان نصيبهما فى إحدى الغزوات مائتى جمل من الغنائم ، مما دعا بعض المقاتلة إلى التذمر ، مع أن ذلك كان بأمر النبى « ص » .

من الحقوق . . ويخرجان فى أشد انفعالات الغيظ . ويذهبان إلى « أبى بكر ». ويقولان له: أأنت الخليفة أم « عمر » ؟ والله ما ندرى أيكما الخليفة ؟ وياله من تحريض خبيث يقوم به هذان الطمّاعان ليوقعا بين الأخوين العظيمين « أبى بكر » و « عمر » . ولكن الله يسدد [١] « أبابكر » ويلهمه الصواب فيفهم غرضهما الخبيث. ويقول لهما : بل الخليفة « عمر » لو شاء . ويأتى « عمر » على أثرهما مغضباً فيقول لأبى بكر : أأرضك هذه أم أرض المسلمين ؟ فيقول له : بل أرض المسلمين عامة . فيقول : وهل أذن لك المسلمون فى أن تقطعها لهذين دون غيرهما ؟ فيقول « أبو بكر » : أشار علىّ بذلك من حولى .. فيقول « عمر » أو كل من هنا من المسلمين أوسعتهم مشورة ؟ .. ويقول له « أبو بكر » : يا عمر لقد قلت لك : إنك كنت أقدر على هذا الأمر منى ولكنك أبيت أن تقبل بيعتى لك . وغلبتنى على أمرى .

ثم يكون ختام القصة أن ينظر « عمر » إلى هذين المتبجحين بقوتهما وجاههما ويقول لهما : انصرفا واجهدا جَهْدكما ولا راعا كما الله ولا أبقى عليكما إن خليتما جهداً من تدبيركما [٢]. فقد أعز الله الإسلام وأغناه عن مثلكما .. ويذهبان إلى البادية يجران أذيال الخيبة والفشل [٣] بعد أن لقنهما « عمر » درساً لن ينسياه ما بقيا على قيد الحياة .

---

(١) التسديد : العصمة من الخطأ .

(٢) أى إن كان لكما قوة فأظهراها .

(٣) كان هذا العمل بدء عهد جديد فى التشريع الإسلامى ، وبه سقط سهم « المؤلفة قلوبهم » بعد أن كانوا بنص القرآن يستحقون سهما فى الزكاة .

٩ ـ عمر فى الخلافة

لم تكن الخلافة بعيدة عن « عمر » فى يوم ما، منذ دخل فى الإسلام إذا قصدنا بالخلافة القيام على تصريف الشئون العامة للجماعة الإسلامية نيابة عن رئيسها الأعظم « محمد » (ص). إن « عمر » لم ينس هذه النيابة وهذا الاهتمام بشئون الجماعة لحظة من حياته ، لا فى عهد الرسول (ص) ولا فى عهد « أبى بكر » ، إذ كان المحرك الدائب العمل الذى لا يعرف الهدوء . ولم يكن يعتقد أن الخلافة هى السلطة الرسمية وأبهة المنصب ونفوذ الأمر فحسب. إنها فى اعتقاده أعظم مجموعة من الخدمات يمكن أن يؤديها للجماعة من يقدر عليها . ولقد كان بحمد الله يؤدى ذلك خير الأداء، منذ أصبح عضواً فى الجماعة الإسلامية . وعند ما أحس « أبو بكر» بخطورة مرضه الأخير راح يشاور سرًّا من يثق بهم فى دينهم وعلمهم وأخلاقهم من الصحابة . ولكنه فى الحقيقة لم يكن يعدل بعمر أحداً منهم على الإطلاق . وكانت أكثر مشاوراته تدور حول « عمر » . وكان يشاوره أحياناً ليستطلع رأيه أيقبلها أم يرفضها ؟ وكان « عمر » يخشى ما وراءها من تضحيات جسام على رجل له مثل ضميره وشدة خوفه من ربه . لذا كان يقول أحياناً لأبى بكر : لا حاجة بى إليها . وكان « أبو بكر» يقول له : ولكن بها حاجة إليك .. وعرف كثير من الصحابة

عزم « أبي بكر » على اختيار « عمر » ففزعوا وراحوا يرجون « أبا بكر » ألا يفعل لما عرف به « عمر » من شدة فى الحق كانت لا تحلو لكثير منهم . إنهم لا ينسون أنه كان من أشد الناس على « خالد بن الوليد » قائد « أبى بكر » الأعظم عند ما قتل « مالك بن نويرة » فى إحدى غزواته ، دون أن يتثبت . كان « عمر » يريد عزله وإيقافه موقف الاتهام والقصاص منه إذا ظهر أنه كان متعمد قتل « مالك » بلا ذنب . ولولا تغلب الآراء الأخرى على رأى « عمر » لأصاب خالداً شر لا قبل له به[١] .. إن « عمر » لا يعرف فى الحق دوراناً ولا مصانعة ولا محاباة ولا ميلا ولا ضعفاً . وهذا النمط النادر من الرجال لا يكون عادة كثير الأنصار والأحباب . . وشعر « أبو بكر » بالجموع تتكاثر عليه من أجل إبعاد « عمر » الذى كان معروفاً له بمزاياه وفضائله أكثر من كل أحد سواه . واشتد الجدل ذات مرة فقال بعضهم لأبى بكر : وماذا تقول لربك إذا وليت علينا « عمر » مع ما تعرفه من شدته علينا قبل الولاية ؟ ثم كيف به بعدها ؟ وعند ما سمع « أبو بكر » ذلك القول قال لمن حوله : أسندونى . فأسندوه فصاح فيهم مغضباً : أبالله تهددوننى ؟ لقد خاب من تزود من أمركم بظلم[٢] . أقول

---

(١) مما يدعو إلى العجب أن « خالداً » كان ابن خال « عمر » لأنه ابن عم أمه . فله به صلة نسب قريب مزدوج . ولكن « عمر » العبقرى ما كان يعرف فى الحق خالا ولا أبا . فلله دره من عبقرى عديم النظير .

(٢) أى ما كنت يوماً لأظلمكم مع علمى بأن الظلم خيبة وخسران .

لربى : يا رب إنى وليت عليهم خير أهلك . . وانصرف آخر جمع ليدخل « عثمان بن عفان » كاتب « أبى بكر » ومستشاره فيمليه عهده إلى « عمر » بالخلافة . ويكتب « عثمان » العهد ويختمه بخاتم الخليفة . . وتمضى لحظات فيلفظ « أبو بكر » آخر أنفاس حياته ويودع دار المتاعب إلى دار الراحة الأبدية . . ويصبح « عمر » الخليفة الثانى حاملا المسئولية الكبرى فى الدولة ، وما أعظمها من مسئولية على مثله .

ثم يشاء الله أن يكون أول من يذوق شدة « عمر » فى الحق هم آل « أبى بكر » الذى اختاره للخلافة وأغضب من أجله كثيراً من الصحابة : أصبح « عمر » جالساً فى مكانه للقيام بأمر الخلافة ومعه مستشاره « عبد الرحمن بن عوف » أحد أعلام الصحابة وأحد القلائل الذين كانوا موضع رضاء النبي (ص) ومحل ثقته المطلقة . وبينما هما يتشاوران فى الأمر ويعرضان المشاكل دخل رسول « أبى بكر » الذى كان بعد النبي أحب رجل إلى « عمر » . فسأله « عمر » ما وراءك ؟ فقال : هذه وصية الخليفة الراحل « أبى بكر » جئت إليك بها معجلا كما أوصانى بالأمس . ويفتح « عمر » الوصية فإذا « أبو بكر » يطلب منه أن يتسلم من أهل بيته عبداً من عبيد الصدقة وجملا ناضحاً [1] وجرد قطيفة ، ليضمها إلى مال المسلمين . وهى كل ما بقى من مال للمسلمين فى ذمته التى يريد إبراءها أمام الله . وهنا تغشى « عمر » غاشية من التأثر الذى لا حد له ويطلق

---

(١) الناضح الذى يستعمل فى سقى الزرع بالسواقى .

سيلا من مدامعه الغزار ويقول : أتعب « أبو بكر » من جاء بعده .
أتعب « أبو بكر » من جاء بعده [١] . ويستعبر « عبد الرحمن » فى البكاء
ما شاء الله له أن يبكى . ثم ينتبهان على مناقشة تحتدم بينهما : « عمر »
يريد تسلم العبد والجمل وجرد القطيفة . و « عبد الرحمن » يقول له :
سبحان الله يا « عمر » ! أتأخذ من آل « أبى بكر » جملا ناضحًا وعبداً
وجرد قطيفة ثمنه خمسة دراهم ؟ إنك لتعلم أنه بدد الآلاف المؤلفة من ماله
يوم كنا فقراء لا نملك غير أقواتنا ، إيماناً منه بوعد الله ، وحدبًا على
رسول الله ، ودفاعاً عن الإسلام . دعها لهم يا عمر . ويقول له « عمر » :
عجباً يا ابن عوف لك . أتريد أن يبرئ « أبو بكر » ذمته منها أمام الله
وأصبح أنا مسئولا عنها أمامه يوم الحساب ؟ استمع إلىّ يا « ابن عوف » :
إنما وليت هذا الأمر وأنا أعلم أنه الأمانة التى تعجز عن حملها السموات
والأرض والجبال . ولو علمت أن فى أصحاب « محمد » صلى الله عليه وسلم
من يستطيع حملها ، كما أحب أنا أن تحمل ، لكان أحب إلىّ أن
تضرب عنقى من أن أتقدم عليه لحملها إيثاراً لنفسى عليه . . يا « ابن عوف »
إنما مثلى ومثل صاحبىّ [٢] من قبلى كمثل اثنين سلكا طريقاً مستقيما لا
أمت [٣] فيه فوصلا ونالا ما أرادا . وتبعهما الثالث يريد الوصول إليهما . فإن

---

(١) يعنى أن من سيجىء بعده مهما تعب فلن يصل إلى مثل فضائله ومزاياه .
(٢) يعنى النبى (ص) وأبا بكر .
(٣) لا عوج فيه .

سار على طريقهما ولزم جادّتهما لا يحيد عنها قيد شعرة أدركها ونعم بهما . وإن حاد قيد شعرة لم يدركهما ولم يجتمع بهما . وانتهى الأمر بتسلم هذه المخلفات المتواضعة وضمها إلى أمانات المسلمين. لأن « عمر »، فى ذات الله، لا يريد حباء ولا مساومة بسبب ما يكنه لآل « أبى بكر » من حب وإعزاز لا حد له .

تلك واحدة من تشددات « عمر » التى كان الناس قديماً يكرهونه من أجلها . فهل ثمت[١] من قلب يستشعر الكرامة والذمة والإخلاص لربه ودينه يكره الآن أمثال هذه الروائع السماوية التى لن تتيسر إلا لملهم تمده السماء بأنوار غامرة لا يضل معها طريقاً ولا يستشعر حيرة ؟ إنها أنوار تغمره من مداخل لا يعلمها إلا الله ، ثم تستقر فى ضميره الطاهر الذى لا حد لطهره ولا لصفائه لكى تربو فى داخله وتنمو وتنعكس على جميع من حوله فى أضواء ساطعة لا تستطيع عين أن تتجاهلها ، ولا نفس مهما قست إلا أن تلين لها ، وتذوب فى تيارها الجارف .

وهكذا أصبح رابضاً فى « المدينة » الخالدة ذلك الكوكب الدرى العبقرى لكى يغمر بأضوائه العالم ويبهر الدنيا ، ما قرب منها وما بعد .

ولقد أعلن « عمر » منهجه السياسى فى كلمات قد وزنت بميزان الذهب، بل كانت أدق من الميزان نفسه فى شرح خطة «عمر» والإبانة عن عبقريته الفذة، إذ قال فى أول خطبة له بعد الخلافة : إنما مثل العرب

---

(١) فهل هناك .

كمثل جمل أنِف[١] اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده . أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق .

بهذه الجمل الثلاث المحدودة أبان « عمر » عن علمه الجم وخبرته بالنفوس والطبائع ، وعن تضلعه من السياسة وحظه من الكياسة. وعن مدى معرفته بنفسه وما زخر فى جوانبها من كنوز الحكمة والكفاية التى لا تطولها كفاية . والحق الذى لا يشوبه لبس هو أن العرب فى ذلك الزمان كانوا يخضعون للسلطة الإسلامية خضوع جمل أنِف يسحب بالبرة من أنفه فيتبع قائده مرغماً منصاعاً لقوته ، وهو بطبيعته الحقيقية عصى شرود لو قست عليه يد قائده أكثر مما ينبغى لثار وتقاعس وخبط وهاج حتى تتحطم بُرَته ، أو يتحطم أنفه ، ثم يطلق سيقانه للريح فلا يلحق به لاحق. ولو أرخت له الزمام يد قائده فأفلت منها لندّ[٢] يخبط فى كل مكان حتى يختفى ، أو يتردى فى مهواة ، أو يتوغل فى تيه فيهلك فيه .. وإذن فإن سائسه وقائده يجب أن يكون فى غاية الحذر وفى غاية الحكمة فلا يحكم أكثر مما ينبغى ولا يلين أكثر مما يجب .. وأما أن القائد يجب عليه أن يعرف الطريق الذى يقود فيه تابعه فإن ذلك مبدأ وقاعدة من قواعد السياسة لا يحيط بها نظرياً وعملياً إلا عبقرى ملهم مثل « عمر » . لأن

---

(١) يشتكى أنفه من طوله سحبه منه بالبرة وهى حلقة من الحديد تطبق على أنف الجمل الشرود ليقاد بها رغم أنفه .

(٢) ند البعير شرد وانطلق على وجهه .

جهل الطريق ليس وراءه سوى الدمار والبوار. ولذا كان « عمر » ، بعد معرفته بطبائع من سيقودهم ، ومعرفته بالطريق الذى يجب أن يسلك ، واثقاً من نفسه تمام الوثوق . لأنها نفس عركها [١] وابتلاها وعرف دخائلها وطواياها . ولعله فى ذلك كان مصداق الوصية الشهيرة التى اتخذها « سقراط » الحكيم له شعاراً دائماً « أعرف نفسك بنفسك » .. وإذن فقد تقدم للزعامة والسيادة والقيادة وهو مسلح بأعظم عدة من المزايا النادرة والكفايات العالية التى يندر أن يكون لها ضريب فى العالم .

إن الحاكم الذى يجعل وجهته الحق الذى أجمعت على تقديسه الجماعة ، فلا يحيد عن طريقه طرفة عين ، ولا يسمح لأحد أن يحيد عنه ، ويستطيع أن يكون إعصاراً مدمراً ، كما يستطيع أن يكون برداً وسلاماً ، تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال ، لهو الحاكم الذى تخضع لسلطانه الجبابرة وتسعد بملكته كل نفس معذبة حائرة ، وبه تتكتل القوى وتجتمع الجهود وتتوحد الوجهة فى سبيل الخير ، فإذا السبيل ميسر والخير محصل والنتائج مضمونة ، والعقبى نجاح وفلاح وظفر. وحسبنا بحاكم يمر تحت ميزاب للعباس عم الرسول (ص) يوماً فيصيب ثيابه منه ماء مختلط بدم دجاج فيرى ذلك أذى على السابلة [٢] ويأمر بخلع الميزاب فيخلع فى الحال ، دون محاباة لعم الرسول (ص) ، على جلالة قدره ، فيأتى

---

(١) جربها وامتحنها كثيراً .

(٢) الناس الذين يمرون فى الطريق .

« العباس » فى رفق وتلطف ويخبره بأنه لم يضع هذا الميزاب فى مكانه إلا رسول الله (ص) ، فيأخذ بيد « العباس » وبالميزاب ويأبى إلا أن يحمل « العباس » بنفسه حتى يضع الميزاب مكانه ، إكراماً لرسول الله « ص » وتعظيما ؛ فتبيت « المدينة » ساهرة على التحدث بعمله العظيم وتسير به الركبان فى شتى بقاع الأرض . إن خلع الميزاب كان جزاء وفاقاً رادعاً ، دون شك ، عن العودة إلى أذى الناس عن طريق سوء استعماله. كما أن رده إلى مكانه ، إكراماً لآثار النبى (ص) ، كان رعاية وأدباً عالياً تضرب به الأمثال ، وتؤسر به القلوب ، وتستأنس به الطباع العصية ، وتراض بمثله الغرائز الوحشية .

وكان « عمر » فى هذا الباب قريع دهره ونسيج وحده ، وكان ضميره فا يقظة لاتترك ذرة من الضعف والهوى تنساب إلى نفسه وتعكر صفاءها وضياءها الوهاج . ولنره الآن بعين خيالنا ، بجسمه الطويل الفارع جالساً بين جمع حاشد من أهل « المدينة » يقسم على نسائهم مروطاً[1] تتخطفها أيديهم ، فى سعادة لاحد لها ، ويروحون بها إلى بيوتهم فرحين . ويتفق أن يبقى من المروط مرط جيد يسر الناظرين فيتريث « عمر » فى تسليمه ويقلبه فى يده ويصمت كأنما يفكر فيمن تستحقه من نساء رعيته الحبيبة إلى نفسه . ويرى بعض من معه ما هو فيه فيقول له : أعط هذا ابنة رسول الله التى

---

(١) المروط ثياب معروفة تلبسها النساء كانوا يحصلون عليها كضرائب أو بطريق الصلح ، من البلاد الصناعية .

عندك – يريد « أم كلثوم » بنت « على بن أبي طالب » حفيدة النبي وزوجة « عمر » . وسرعان ما يدرك الحاكم العبقرى أن ريح الهوى تحاول أن تهب على نفسه فيأمر لزوجته بالمرط الجميل بحجة أنها حفيدة النبي (ص) . ثم سرعان ما يرفض ذلك ويقول : لا . . إن « أم سليط » أحق به . لأنها ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكانت تزفر لنا القرب يوم « أحد » . وهكذا منح المرط الجيد الجميل لهذه المسكينة التى لا جاه لها ولا حسب ولا ثراء . امرأة من عرض المساكين كان كل حسبها وجاهها أنها بايعت النبي (ص) ، ولم تكن الوحيدة التى بايعته ، وأنها كانت امرأة فدائية تخاطر بنفسها وسط المعركة لترفع كل قربة تتمزق من كثرة حمل الماء إلى الجند . لقد التمس لهذه المسكينة شيئاً يفضلها به على زوجته حفيدة الرسول ، فجبر كسرها وطيب خاطرها ، ووهب لها أفضلية كانت ستفقدها أبد الدهر هى وأمثالها من المساكين لولا « عمر » وعدل « عمر » الذى سوى بين الجميع ما عدا امتيازهم بفضائلهم وأعمالهم .

ولم يكن « عمر » يخاف على نفسه فقط ، ويكتفى بحساب ضميره فحسب . إنه أحب أن يكون ضمير رعيته نقياً كضميره وأن تكون أعمالهم طيبة كأعماله . وكان يهتم بقريش فى ذلك بأكثر من سواها لأنهم كانوا عرضة للإدلال بشرفهم ومفاخرهم ومجدهم العريق مما يجعلهم يلتمسون الأسباب لتفضيل أنفسهم على غيرهم فى الأرزاق والأموال كما فضلوا بالشرف والنسب . ومن أجل ذلك منعهم من مغادرة « المدينة » والتوطن

بغيرها من البلاد لاتخاذ الإقطاعيات وجمع الثروات ، على ما فى ذلك من إثارة الأحقاد عليهم والكراهية لهم ، وإثارة المنافسة فيما بينهم . . وكان يقول : إن « قريشاً » تريد أن تكون مهلكة لمال الله تحتازه دون عباده. أما وأنا حى فلا .. وبعد فلعل « عمر » كان أول حاكم فى التاريخ اتخذ هذا الإجراء الذى يسمونه اليوم «تحديد الإقامة » بهذا الشكل الجماعى ، لا لأعداء يخشاهم ويحاصرهم ، وإنما لقومه وأهله وعشيرته . ولم يكن ذلك إلا حرصاً على خيرهم وسعادتهم وإبقاء على مكانتهم فى نظر الجماعة قاصيها ودانيها . كذلك كان يمتحن ضمائر عماله ليرى مدى حبهم للمال وحرصهم عليه أوسخائهم به وصرفه فى وجوه البر والخير . وكان من أجل ذلك يرسل إليهم بمقادير من المال فى صرر تحوى مئات الدنانير ويوصى حاملها بأن يسلمها إلى فلان أو فلان من عماله [1] ، كإعانة له من قبل الخليفة ليصلح بها من شئونه ، على أن ينتظر رسوله هناك حتى يرى بماذا يتصرف عامله فيها ؟ أيدخرها لنفسه وتشح بها نفسه ، أم يجود بها ويساعد منها ذوى الحاجات ؟ . وكان يسر أعظم السرور إذا سمع عنهم الزهد فى المال والسخاء به ويقول : الحمد لله .. إنهم إخوة بعضهم من بعض . ولقد أصاب « عمر » كل الإصابة . لأن الشره إلى احتياز المال إذا أصاب نفس حاكم وتمكن منها كان كارثة على العدل والإنصاف ومفسدة من أعظم مفاسد الحكم .

---

(١) المراد بالعمال هنا الولاة والحكام .

ولم يكن « عمر » يعتبر الحكم تشريفاً بل كان يعتبره تكليفاً ومهمة محتمة الأداء ، دون أن ينفرد لنفسه بشيء من الامتياز أو يتفضل على الرعية بأى مظهر من مظاهر العظمة والكبرياء . إن هذا التشريف بالحكم لم يخطر له على بال ولم يمس عرقاً من عروقه ، ولم يهز عصباً من أعصابه. وما كان أعظمه من تشريف لو أراد « عمر » ذلك التشريف. لقد كان فن المعمار ، بلا شك . قد بدأ يتمشى فى حياة المدينة ، وبدأت حياة الرغد تظهر وتدب فى بيوتها المفعمة بالثروات. ولم ننس أن « عمر » كان قد نشأ وترعرع فى « مكة » ورأى بيوت الأثرياء من ثراة « قريش » وما تحوى من ضروب النعيم ، وشعر بالبون الشاسع بين بيوتهم وبيت أبيه « الخطاب » ذى العيش العادى المتواضع : خبزة الشعير وقدح اللبن وقطعه اللحم ووسادة الليف الخشنة وحصير السعف . تقابل فى بيوت الأثرياء وسائد الكرسف [١] فى الحرير ، وحشايا الخز والديباج وصنوف الحلل الفاخرة . وضروب المطاعم التى يسيل لها اللعاب وترنو إليها عيون المحرومين . رأى كل هذه الفوارق فى صباه وشبابه . فى نفس بيوت « قريش » أهله وعشيرته . وكم للفوارق المعيشية . بين ذوى القربى ، من حزازات فى النفوس وآلام فى القلوب وأوجاع فى الحشا وعذاب فى الضمير . وكم لهذه الفوارق عند نفوس العاديين من بنى البشر من دفع إلى التكالب على المادة والتزاحم

---

(١) القطن الخفيف الناعم .

والتنافس في سبيلها ، حتى لتتمنى نفوس جوعى لو حيزت لها الدنيا بما رحبت ، وحرم ذلك على غيرها من النفوس ، ليظهر التفوق ، ويتضح الغلب ، ويتألق الفوز . لقد كانت الفرصة مواتية ، وايم الله ، لابن « الخطاب » لكي يعوض ما فاته فيضم إلى شرف نسبه القرشي الشامخ خيرات الدنيا العريضة وزهرتها ومتاعها الحلو ورغدها الفائض وزينتها المتألقة اللامعة ، ويمتلك من ذلك ما كان لقارون حين كان يخرج على قومه في زينته فيقولون : « يا ليت لنا مثل ما أوتى « قارون » إنه لذو حظ عظيم » وإن ما أوتى « قارون » ذلك اليهودى الثرى المغمور فى مملكة « إسرائيل » الصغيرة ، لم يكن يبلغ أكثر من قطرة فى بحر بالنسبة لما كان يجبى إلى « عمر » من أرض تحوى رقعتها إذ ذاك ما لا يقل عن عشرة أقطار تحوى من الموارد والغلات والثروات ما لا يحيط به الإحصاء . وما كانت « مصر » كلها وإن عظمت إلا قطراً من هذه الأقطار . وهى التى افتخر بملكها « فرعون » فقال : أليس لى ملك « مصر » وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . لقد ملك « عمر » ملك « فرعون » كله ، وملك « سليمان » كله وما لم يصل إليه « فرعون » ولا « سليمان » من بلاد وأقطار فلم يحرك ذلك منه عرقاً بزهو ، ولا هز لسانه بفخر ، ولا مس أنفه بكبر ولا حمله على الانتهاز وجر المغانم لنفسه . إن نفسه كانت أعظم من ذلك كله . وعظمته الذاتية كانت أكبر من ذلك كله . كان يرى أن ليس

لحاكم عادل مؤمن بالخير والعدل والفضيلة أن يحتاز لنفسه من ذلك شيئاً أو يتفضل بشيء منه على الناس . وكيف ؟ وهو الذى كان يقول : « إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز الناس فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة بالناس »[1]

كانت الوفود ترد إلى مكانه فى « المدينة » فيجدونه فى دار إبل الصدقة وليس عليه إلا إزار قطرى[2] وهو يطلى إبل الصدقة بالقطران[3] وعند ما جيء بالهرمزان أحد ملوك الفرس أسيراً ، وعليه تاجه وحلله وحلاه الذهبية ، أدخلوه على « عمر » . وهو نائم بالمسجد ، وقد أثر التراب فى ملابسه المتواضعة . فلما هب من نومه ورأى منظر « الهرمزان » وحلاه الذهبية وجواهره اللامعة على ثيابه الحريرية البراقة قال : أعوذ بالله من النار . أى من نار جهنم التى تنتظر أصحاب الترف الصارخ يبتزونه من دماء الرعية . وما أكثر المحتاجين إليه بجسدهم العارى وبطنهم الجائع . أما « الهرمزان » فسأل : كيف ينام ملككم هذا بلا حرس ولا حجاب ؟ فلما أفهم السبب قال : هذا هو الملك لا ما نحن فيه .

وكان أيام فتوح بلاد « الفرس » يشتد به القلق فينتزع نفسه

---

(١) مثلهم سواء بسواء .

(٢) من ناحية « قطر » بالبحرين . وهو نوع متواضع من الثياب .

(٣) كان بنشأته فى البادية من أعظم الناس خبرة فى هذه الأمور . فأحب ألا يضيع ما يحسنه ، عبثاً ، لكى يرضى نزعة الكبرياء .

من أشغاله المتراكمة ، ويخرج راجلا [١] إلى ضواحى « المدينة » يتنسم الأخبار . ومن الطرائف أنه لقى يوماً أحد بُشراء [٢] الفتح ، راكباً على بعير ، فراح « عمر » يسأله والرجل يجيبه وهو راكب ولا يعلم أنه أمير المؤمنين . و « عمر » يمشى بجانبه وقد وضع يده على مؤخرة البعير كأنما هو فرد صغير من الرعية . فلما انتهيا إلى العمران رأى الناس يسلمون على « عمر » بأمير المؤمنين. وفزع الرجل ونزل يعتذر ويقول : هلا أخبرتنى ، يرحمك الله، بأنك أمير المؤمنين ؟ ويردعليه « عمر » قائلا له : لا بأس عليك يا أخى ، لا بأس عليك يا أخى . .

ولنذهب بخيالنا إلى زمانه ومكانه لنراه يوماً فى حظيرة إبل الصدقة بالمدينة ، وقدراح يطلى بعيراً بالقطران فإذا « الأحنف بن قيس » زعيم العراق وملكه غير المتوج [٣] يوافى « عمر » على رأس وفد العراق وهو فى أبهى حلله وأبهة زعامته ونفوذه. ويسلم عليه « عمر » ثم يدعوه ليعلمه درساً فى التواضع لا ينساه : قال له : هلم يا « أحنف » لتساعد أمير المؤمنين فى هذا البعير . لأن فيه حق اليتيم والمسكين والأرملة. ولم يملك الأحنف إلا أن يخلع ثيابه ليقوم بما يقوم به أمير المؤمنين. ويتكلم أحد الحاضرين قائلا : يا أمير المؤمنين هلا كلفت عبداً من عبيد الصدقة أن يكفيك ما أنت فيه ؟ ويجيب « عمر » : ومن

---

(١) ماشياً على رجليه كأى رجل من الرعية .

(٢) الذين يرسلون بأخبار الانتصارات الكبرى .

(٣) كان إذا غضب سلت لغضبته عشرات الألوف من السيوف دون ان يسأل لماذا غضب .

أعبد منى ومن الأحنف؟ إن من ولى مصالح الرعية يجب عليه أن يكون عبداً لهم. ولا يملك القوم إلا الإطراق برءوسهم والخشوع أمام آية من أعظم آيات التواضع والقدرة على تأديب النفس وتناسى الأنانية إلى حد لا يتأتى إلا لكرام الملائكة المقربين .

وكان « عمر » على تواضعه الجم ورقته للرعية وحدبه عليهم ، مهيباً فى كل قلب معظماً فى كل نفس . تسبقه هيبته إلى كل مكان دون تكلف أو تصنع . وما سر ذلك إلا لأنه كان يكره الخروج على حدود الشرع والاستهانة بمكارم الأخلاق . ويؤدب على ذلك أوجع التأديب ، إذا لم تفلح العظة ولم تجدْ الرحمة .

ومما يستحق أن يسطر فى ذلك أن جماعة من أهل « المدينة » بعثوا إليه يوماً « عبد الرحمن بن عوف » ليكلمه فى أن يرق لهم ويكون أكثر تسامحاً . فقال « عمر » أو قد قالوها؟ والله لو عرفوا مدى رقتى لهم وحدبى[١] عليهم لأخذوا ثوبى من عاتقى[٢] . . والله لأنا أشد خوفاً لله منهم منى . . ورآه يوماً جماعة وقد طلع فجأة فسقط بعضهم على ركبته من شدة المفاجأة فأرسل « عمر » عينيه بالبكاء . وقال والله إنى لأخوف لربى بأكثر من خوفهم منى . . ودعا يوماً بامرأة يتخذ الرجال من بيتها مكاناً للجلوس والحديث . فلما بلغها الخبر قالت : يا ويلى يا ويلى ! مالى ولعمر ؟

---

(١) الحدب الحب العميق .

(٢) أى لاجترأوا على وطمعوا فى إلى حد الخروج عن الحدود المشروعة .

وضربها المخاض[١] فى طريقها فالت إلى أهل بيت فوضعت غلاماً لم يكد يرى النور حتى خمد إلى الأبد . وعلم « عمر » فاهتم أشد اهتمام وفزع أشد « فزع » وجمع مؤتمراً من المهاجرين والأنصار ليشيروا عليه بما يرونه . وقال بعضهم : يا أمير المؤمنين إنك مؤدِّب ولم ترد بها ضرراً فلا عليك . ولم يعجب « عمر » هذا فطلب من « على بن أبى طالب » رأيه فأفتى بأن يدفع « عمر » من ماله ومال أقربائه دية الوليد ، فاستجاب « عمر » لرأى « على » وأخذ به تحوطًا من الظلم .

١٠ – نهاية حياة « عمر »

ثم يدور الزمان بل يستدير ويتحول فجأة من إقبال إلى إدبار ومن سعادة إلى بؤس ومن سلام ورخاء وسعادة وأمن إلى خوف ووحشة وشدة وبغى وظلم وطغيان وفتن . إذ بينما « عمر » فى أوج مجده وذروة علاه وقمة نشاطه ينتقل ويتحول فى اليوم والليلة مئة مرة ، بل مئات المرات ، من شئون إلى شئون ومن أعمال إلى أعمال ومن شواغل إلى شواغل ، لا يقوم من مهام الدولة وأعمالها إلا لعبادة ربه وإمامة المؤمنين ووعظهم وتعليمهم أو إلى شئون بيته وأسرته ، وبينما هو لا يختم عمله بالنهار إلا ليسهر بالليل متخذاً

(١) المخاض مقدمات الولادة .

من نفسه ومن مولاه « أسلم » أو من يختاره من الصحابة عسساً [١] يدور فى أزقة « المدينة » ودروبها ليتسمع لما يجرى فيها من شئون ، فى هدأة الليل الساجى ، وتحت مثار عتمته ، فيرجع وقد بان له أمر السعداء من البائسين والأغنياء من المحتاجين ، والظَّلَمة من المظلومين ، والمنافقين من المؤمنين ، ليتصرف حسبما بدا له ، وبينما هو يتنور [٢] نيران الليل فى أبعد ضواحى « المدينة » ليسرع إلى كل نار تتوقد ، فى فحمة الليل ، فيرى ما عندها من حاجات وجوع وعرى فيرسل النجدة ويحمل بنفسه المعونة ، وبينما هو يرسل الجيوش تلو الجيوش ويضع الخطط الحربية لقواده وعماله ، ويكتب لهم الوصايا بالعدل والرفق بالرعية فتكلل أعماله بالفوز المبين ، وبينما هو يوزع الخيرات بالشمال واليمين وبما يساعده من ألوف الأيدى فتزدهر الحياة وينتشر الخير وتنمو منابت السعادة فى كل مكان ، وبينما هو يستقدم القواد والعمال ليسألهم ويؤدبهم على كل ظلم ارتكبوه فى الرعية ، لا فرق بين مسلمها وغير مسلمها ، ما دامت رعيته ولها عليه حق العدل والإنصاف ، وبينما هو فى غير هذا أو ذاك من الشئون تربص له ريب المنون فى أكبر مأساة أصابت الإسلام وأساءت إلى الجماعة الإسلامية أبلغ إساءة ونكبتها بأعظم نكبة .

كان أول خيط فى شرك هذه المأساة أن أرسل « المغيرة بن شعبة » [٣]

---

(١) هو ما يشبه فى زماننا دورية البوليس ليلا .

(٢) يتطلع وينظر .

(٣) أحد أعلام الصحابة ومشاهيرهم .

من بلاد « الفرس » إلى « عمر » يستأذن فى أن يرسل إلى « المدينة »عبداً له فارسياً لا يزال على مجوسيته ، لما قد يعود على « المدينة » من منافع بوجوده فيها . لأنه يجمع بين عدة صنائع مهر فيها وأجاد . . ولم يملك « عمر » الحريص على خير أهل « المدينة » وسعادتهم وراحتهم إلا أن يأذن له مع أن دستوره الذى وضعه ، من قبل ، هو ألا يدخل « المدينة » من السبي سوى من لم يبلغوا الحلم . ودخل الغلام الفارسى المجوسى « أبو لؤلؤة » وفى قلبه من الحقد ليل مظلم لا يدرى ما يختبئ فى زواياه من شر وهلاك . وبعد أن أقام بالمدينة مدة ، وعرف منها ما لم يكن يعرف ، ورأى جموع الأسارى تتوارد من بلاده وأخبار النصر تتوالى حدثه شيطانه بحديث خطير : ذهب مضطغناً إلى « عمر » وشكا إليه من ضخامة الخراج الذى فرضه عليه سيده « المغيرة بن شعبة ». فقال له « عمر » : ما معك من الصنائع ؟ فقال : حداد نقاش نجار. فقال له : ما أرى خراجك كثيراً على مالَكَ من صنائع . ولم يقل « عمر » سوى الحق. لأن هذه الصنائع كانت رائجة بالمدينة. ولم يكن الخراج الذى فرض عليه أكثر من مائة درهم كل شهر أى دينارين على التقريب ربما حصلهما من عملية واحدة. ولما رده « عمر » مضى متذمراً . بينما راح « عمر » يفكر فى خير يوصله إليه ليشعره بعدالة الحكم ويزيل من نفسه مرارة الظلم الذى يكرهه « عمر » كراهية طبع وسليقة. ورآه « عمر » ذات يوم فى الطريق فاستدعاه ولاطفه ليزيل وحشة صدره. وقال له : ألم أسمع أنك تقول : لو شئت لصنعت رحى تطحن

بالريح ؟ فقال الشيطان والحقد يتدفق فى كلماته ويتعثر فى نبراته : لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس . . فلما ولى قال « عمر » : توعدنى العبد آنفاً [١] . . يا لها من تعاسة لذلك المجوسى الذى اتسعت له أحضان مدينة الرسول ولم تحرمه مجوسيته من عطف « عمر » وحدب المسلمين المتسامحين . ولكنه كان لا يعرف للخير وجهة ولا يرى غير الشر طريقاً . . لقد كان اللعين يستطيع أن يصنع لعمر تلك الرحى التى تدور بالريح ، على مرتفع من مرتفعات المدينة السعيدة الرافلة فى الفردوس ، ليراها أمير المؤمنين ، ويفرح بها ، ويغدق عليه الخير جداول مترعة . وليراها علية القوم رجالا ونساء ، ولتفرح بها العذارى فى خدورهن كحدث من الخير جديد لم يقسم لمدينة فى النواحى قبل بلدهم السعيد الطيب ، وليهلل لها الأطفال والصبيان فرحين كلما نفخت فى أشرعتها رياح البحر مقبلة من نحو « تهامة » [٢] كل ضحوة ، وكل عشية ، فراحت ترقص طرباً وتتيه إعجاباً وتنتج الخير والراحة والسعادة . ولعله لو عاش وعاش أمير المؤمنين لرأى يوماً درته [٣] تتناول سيده « المغيرة بن شعبة » لو ظهر أنه له

---

(١) أى لقد هددنى ساعة كان يكلمنى الآن . ولو كان « عمر » جباراً يأخذ بمجرد الظن لألقى به فى سجن مظلم أو نفاه إلى أقصى الأرض .

(٢) « تهامة » الساحل الممتد على البحر الأحمر محاذياً للحجاز .

(٣) الدرة : عصا كان يستخدمها « عمر » لتأديب المذنبين ولو كانوا من أعظم رءوس الدولة .

ظالم . لقد كان ذلك المجوسى شيطاناً بطبيعته عدوًّا للخير حاقداً لا يشفى حقده سوى الشر والجريمة .

لذلك أملى عليه شيطانه أن يفكر ويفكر . فصنع لعمر خنجراً ذا نصلين مقبضه فى وسطه . حتى إذا ما قبضت يده على الوسط أصبحت محتمية بنصلين يحفان بها من الجانبين . فإذا راح يعمل سلاحيه يمنة ويسرة أصاب فى كل جهة ، ولم يجترئ أحد على نزعه من يده إلا إذا كان مختاراً لنفسه الموت دون ما شك .

وفى غلس ليلة مشئومة دلف المجوسي الشرير إلى ركن شديد العتمة من أركان المسجد ، وراح ينتظر على أحر من الجمر حضور « عمر » للصلاة . وكان يبكر لإيقاظ النائمين ، كما هى عادته التى لا تتغير . ومكّن له فى الفرصة أن سُرُج المسجد كانت تطفأ بعد صلاة العشاء حذراً من الجرذان [١] التى كانت تجر الذبالات [٢] المشبعة بالزيت لتأكلها ، فيحدث أحياناً أن تجرها مشتعلة فتحتدم النار فى السقف الذى لم يكن يومئذ سوى جريد النخل اليابس السريع الاشتعال . وكان يصعب إشعالها فى الفجر ، فيبقى المسجد على ظلامه الرهيب .

وتقدم « عمر » بنشاطه الجم وسروره الفياض بساعة العبادة وبينما هو قائم يناجى ربه فى صلاته كان المجوسى يتحسس خنجره حتى مكن يده

(١) نوع من الفأر يغشى المنازل .

(٢) فتائل القطن وكانت مصابيحهم منها بعد غمرها بالزيت وإشعالها .

منه فلم يبق سوى سلاحين بارزين يحفان بيده . ثم وثب وثبة النمر الغادر وراح يسرع فى طعناته حتى أودع البدن الطاهر طعنات مسممة بالحقد والشر والخبث . وكانت إحداها نافذة فى الجوف تحت السرة . فلما أحس بحرارة الحديد قال : أكلنى الكلب . . وتداعى الصحابة إليه فأعمل فيهم خنجره حتى أصاب منهم ثلاثة عشر رجلا مات سبعة منهم . ولم يمكن القبض على النمر الشرس إلا بعد أن ألقى عليه أحد الحاضرين رداء من النسيج الغليظ وكتم أنفاسه فأعمل اللعين خنجره فى نحره وذبح نفسه بسلاح البغى الذى آذى به من أواه وأحسن إليه . وجاء « عبد الرحمن ابن عوف » فاجتز رأسه وبئس المصير .

واحتمل البطل «عمر» إلى داره ودمه يروى تراباً طاهراً طالما دافع عن حوزته ، وأماط عنه الأذى ، ونشر على صفحته أسمى مبادئ الطهر والعدل والحب والإخاء والرحمة . وكان أول أمر فكر فيه بعد إفاقته الأولى أن سأل عمن أصيبوا ، وأرسل من يأتيه بخبر قاتله . فقيل له : إنه « أبو لؤلؤة » فقال : الصنع ؟ (١) لقد كنت أفكر فيه خيراً قاتله الله . ثم استراح واطمأن . وقال : الحمد لله أن قتلنى رجل لم يسجد لله سجدة يحاجنى بها أمام الله يوم القيامة . ثم فاضت أعظم نفس تألقت فى ذلك العالم وانطفأ إلى آخر الدهر ضياء لم يجد بمثله زمان .

---

(١) أى الماهر فى الصناعات .

رقم الإيداع		١٩٩٥/٨٣٤٢
الترقيم الدولى	977 - 02 - 5036 - 8	ISBN

١٠٢ / ٩٥ / ٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)